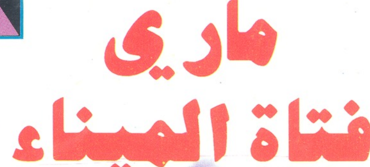


جورج سيمنون



ماري
فتاة الميناء

رواية بوليسية

ماري فتاة الميناء

رواية بوليسية

اسم المؤلف : جورج سيمنون
العنوان الأصلي للكتاب : La Marie du port
عنوان الكتاب : ماري فتاة الميناء
المترجم وجيه العمر
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
تاريخ الطبع : ١٩٩٦

اللوغو : علي شمس الدين

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون ٧٧٧٢٠١٩ – ٧٧٧٦٨٦٤ – فاكس ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت – لبنان صندوق بريد ٣١٨١ – ١١ فاكس ٤٢٦٢٥٢ – ٩٦١١

Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box , : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252



جورج سيمنون

ترجمة : وجيه العمر

ماري
فتاة الميناء

منشورات








في بور. أن. بيسان، تفقد ماري، وهي صبية في السابعة عشرة، اباها. وتأتي اختها أوديل مع هنري شاتلار عشيقها لحضور الدفن. ويولع هذا الأخير بماري فيشتري لكي يراها مركب صيد ينشغل كل يوم به. ما الذي بات يهمه، أي شيء بعد مما عدا ذلك مادام قد علق الآن مابين حياة الميناء وحبه لماري؟...

«هنالك إذن طراز: سيمونون في الأسلوب، على غرار ما يقال: الطراز الامبراطوري. وامبراطورية: سيمونون، هي أكثر اتساعاً بما لا يقاس من امبراطورية نابوليون. ولا يملك لا الروس ولا الإسبان في التصدي لها إلا أن يقلدوا أستاذهم. إنه جو لا يمكن استنشاق هوائه، لولا أنه صار هو الأوكسجين لنا. «إنك بدأت تشبه صورتك الشخصية...». وإن جهنم ستيناتنا بدأت تشبه الصورة التي كان رسمها مسبقاً عن ذلك سيمونون قبل ثلاثين عاماً مضت»

(بول موران، من الأكاديمية الفرنسية)



دار المدى للثقافة والنشر

- ١ -

كان يوم ثلاثاء وقد عادت صباحا الخمس أو الست سفن صيد الجيبية التي تقوم بصيد السمك طيلة أيام الأسبوع على الشاطئ الانكليزي. وكالعادة فقد تم ربطها في الجزء الأمامي من المرفأ، قرب سوق السمك والآن فقط ، وقت المدّ ، يفتح لها الجسر الدوّار.

لقد عجّل شهر تشرين الأول بحلول الظلام وكانت أمواج الماء المنخفض بالكاد تلامس الشواطئ الكلسية. كانت منازل بور- أن - بسن بواجهاتها الرمادية وأسطحتها القاسية من الأردواز تخنق المجرى المائي، عند مستوى الجسر.

وكما هي الحال دوما في مثل هذه الساعة، فقد كان الشيوخ هنا، يحيطون بالجسر بخيالاتهم الزرقاء المرقّعة بقطع أكثر زرقة.

لم تكن تمطر. كانت الريح تهبّ بعض الشيء، من جهة الشمال الغربي، والسماء رمادية بالكامل.

كانت سفن الصيد الخشبية الضخمة ذات الصاريين تمر بمستوى رصيف الميناء، وكأنها، كما يبدو للناظر، بمستوى المنازل، وكانت تذهب لتستقر داخلا في الحوض. كان الرجال على أسطحها، ساكنين، صابرين. وكانوا ينظرون إلى الشيوخ على اليابسة والشيوخ أيضا كانوا ينظرون إليهم. فهم آباء ، أبناء أو أولاد عم، ولكن، وبسبب كثرة القرابات ، لم يكن لديهم ما يقولونه بعضهم لبعض ولا يتوجهون للآخرين حتى بإشارة.

كانت هناك نسوة، وقد لفّهن السواد بشالاتهن، وقباقيبهن الملمعة، وهن يتتابعن وكأنهن نملات في الدكاكين الصغيرة حيث أوقدت المصابيح في هذه اللحظة.

كان يسمع صوت الكرات تتصادم على طاولة بليار مقهى البحرية ونور الستارة الأصفر كان يشعر المرء بطعم مسبق لقهوة أضيف إليها مشروب الكالفادوس.

بقي ما يقرب من ساعة من الزمن نهارا و غسقا! وبعد أن يغلق الجسر، وترسو السفن، ويستقر الشيوخ مرة ثانية في أماكنهم وقد استندوا إلى المتراس، كان بعضهم يعمل بعض الشيء، بلف حبال القنب، وبترتيب الأشياء، وبإغلاق الفتحات والألواح.

وبالقرب من سفن الصيد الجيبية ذات الحجم الكبير، كانت زوارق الصيد تشكل حشداً كبيراً أكثر كثافة وتحركا، حيث هنا أو هناك رجل يصلح شباكه، أو يعالج محرّكه، وأحيانا لم يكن يعمل سوى تدخين غليونه، وقد سرّه كونه على ظهر السفينة.

كان شارل السمين ، بساقه الخشبية، يجتاز المتاريس.

ويتبعه الجدّ ، هادئا ومترسماً تقريباً . وعندها، كان شارل يمدّ لكل صياد ورقة ليست نظيفة تماما ، وقلماً قصيراً فيه أنيلين. كان يعرف الذين لم يكونوا يعرفون القراءة والذين يعرفونها. وللذين لم يكونوا يعرفون القراءة كان يكتفي بالقول:

ـ من أجل ماري و المسكين جول . . .

توقد المصابيح دوما في وقت مبكر جدا، لقد كانت مضاءة، بينما كانت السماء لاتزال بيضاء، لدرجة أنها لم تكن تصدر سوى نور حزين .

وكان الناس يسألون في أغلب الأحيان:

ـ كم نعطي ؟

ـ وفق قول قلبك الطيب... لقد أعطى لويس عشرين فرنكا... هناك من دفع فرنكين وهناك من دفع خمسة فرنكات...

ـ سجلني بخمسة فرنكات .

كان الجدّ هادىء الأعصاب، يتبع وكأنه صبي في كورس. لقد قيل له إنه يتوجب أن يكون هناك شخصان، كي لا يستطيع الناس التحدث عن حصول غش. وكان البعض يقولون أيضا:

ـ إن كانت هناك حاجة من أجل حمله . . .

كان الأمر يتعلق بجول الذي سيتم دفنه صباح اليوم التالي. كان لايزال هنا في بيته في منتصف منحدر الشاطىء الكلسي، حيث كانت الأنوار مضاءة وحيث يرى المرء النسوة الطيبات يدخلن دون انقطاع.

كان شارل السمين يجرّ مدقّته والجدّ يتبعه. لقد عادا باتجاه الجسر ، وقدما الورقة للشيوخ الذين كان لديهم عاجزون:

ـ من أجل ماري والمسكين جول . . .

هبط الليل أخيرا بلطف. بينما كان الرجال يدخلون إلى المقاهي ، بعضهم وراء البعض الآخر، بما أنهم ليس لديهم عمل أفضل يقومون به، وجلسوا قرب الطاولات الملمعه ومدّوا أرجلهم.



كان الأمر وكأن لم يكن هناك صباح ولا ظهر ولا مساء، لأن كل شيء كان لونه رماديا مثل لون الحجارة المنحوتة، عدا لون الزيد في البحر وكان أبيض، وأسطحة الأردواز السوداء القاسية وكأنها رسمت بالحبر على ورق صقيل.

كان الناس سوداً هم أيضاً جميعا، رجالاً ونساءً وأطفالاً. كانوا سوداً ،متبسمين، وقد تضايقوا في ملابسهم الجيدة، مثلما يحصل الأمر يوم الأحد.

اجتاز الموكب الجسر الدوّار وكان أربعة قباطنة يحملون النعش، أربعة قباطنة غطى أيديهم القطن الأبيض في نهاية أذرعهم الطويلة. لاحظ الناس جميعاً، في الخلف، بالقرب من ماري التي كانت ممسكة أحد إخوتها من يده، الابنة الأكبر أوديل، والتي وصلت صباحاً من مدينة شربور، حيث كانت تعيش .

لاحظ الناس أيضا أنها لم تأت في الحافلة، بل في سيارة سياحية، ومعها رجل كان بالتأكيد عشيقها. كما وأنه، عندما مرّ الموكب قرب السيارة، أدار الناس رؤوسهم من أجل

تفحصها، ثم أداروا رؤوسهم أكثر أيضا لكي ينظروا إلى الغريب الذي كان واقفا على عتبة مقهى البحرية وقد أمسك قبعته بيده.

كان الناس يسيرون ببطء. وتوقفوا مرتين، من أجل تبديل حاملي النعش ذوي القفازات البيضاء. دقت الأجراس في الشوارع الخالية ولم يكن هناك سوى الغريب الذي بقي في المقهى بينما ذهب الناس جميعاً إلى الكنيسة وإلى المقبره، وحتى إلى الخمّارة.

لم يكن شخصاً من المنطقة ، ذلك كان بادياً بوضوح، بل كان شخصا من المدينة. كان يوجه الكلام للخادمة بقوله "ياصغيرتي " بينما كانت والدة لخمسة أطفال، ولم يجد حرجا في الدخول إلى المطبخ حيث كانت صاحبة المطعم نفسها تقوم بالعمل.

- هيا، أيتها الوالدة، ماذا تستطيعين أن تقدمي لنا على الغداء ؟

كانت لا تحب الألفة :

- ستبقون إذن حتى موعد الغداء ؟

رفع غطاء الطناجر واقتطع قطعة سجق، ثم مسح أصابعه بمريلة صاحبة المطعم.

- هيا، حاولي أن تجدي لي سمكة موسى سميكة جداً، ومعها كثير من المحار ومن القريدس...

- كان سعر سمك موسى صباحاً ثلاثين فرنكاً للكيلوغرام الواحد...

- وماذا بعدها ؟

لعله لم يكن سمجا، إلا إنه كان يتظاهر بألفة زائدة عن الحد، وبدا على محياه أنه يتهكم على الناس جميعاً. لعله كان يتصور أن كل شيء كان له وأن سكان بورـأنبسن لم يكونوا سوى خدم له !

وضع يديه في جيبيه وأخذ يتنزه على رصيف الميناء ثم على الرصيف العائم. واستطاع أن يرى يسروعة الموكب السوداء تتمطّى من الكنيسة إلى المقبرة وامتلأ الجوّ مجدداً بنواقيس غير مرئية.

عاد إلى المقهى مثلما خرج منه، ومرَّ من خلف طاولة الشراب. واشتم القوارير، دون أن يولي أية أهمية لنظرات الخادمة الغاضبة.

- ستضعين صحفتي وشوكتي وسكيني قرب النافذة...

كان أنف الخادمة التي بكت، مثل الآخرين لدى مرور الموكب، لايزال محمراً. ولاحظ الناس أن ما من زورق صيد خرج، وكان ذلك يدلّ على الاحترام الكبير الذي يكنّه الناس لأفراد عائلة له فلم. والآن، في الأعلى، فوق الرابية، كانت هناك أزهار أكثر بثلاث مرّات مما يلزم لتغطية القبر الصلصالي.

في الساعة الحادية عشرة فقط، امتلأت المقاهي برجال يرتدون ملابس يوم الأحد، وقد حافظوا خلال دقائق عديدة على الرصانة المتطلبة في الدفن.

ثم، وشيئاً فشيئاً، بدأ الناس يتكلمون عن أشياء وأخرى، وعن أوديل التي ارتدت ملابس الحزن العميق عند مجيئها من مدينة شربور لكنها، وتحت حجابها، كانت مطلية بالمساحيق

وكأنها ممثلة، وعن ماري وقد بدا عمرها بالكاد يناهز الخامسة عشرة وقد ارتدت "تايور" قصيراً أسود كانت قد خاطته قبل سنتين بمناسبة وفاة والدتها! وتحدث الناس بعدها عن عائلتين أتتا في عربتين مغطاتين تجرهما الخيول " كرّيولة" ، وهما عائلة بوسّو وعائلة بنسمن، أقارب جول المسكين من جهة النساء، وهم مزارعون يقطنون قرب بايو.

كانت العربتان ذات العجلات المرتفعة والغطاء الأسمر، هناك، قرب الجسر الدوار، لأن الشارع حيث كانت تقطن عائلة له فلم ضيق جداً وشديد الانحدار. وكانت الحجارة التي ترصفه غير متساوية، وتسيل فيه على الدوام ساقية من مياه الغسيل ، وقد تم نشر السراويل والسترات على شرائط حديدية لكي تجفّ، منذ بداية العام وحتى نهايته.

ويعد الشارع، يصل المرء خارج المدينة، إلى مروج على مدّ البصر، وتحته عمودياً يجد البحر عند قدميه.



قامت ماري بالخدمة، وهي تتمخّط من حين لآخر، لكن وكما لاحظت ذلك الخالة ماتيلد، وهي الخالة بنسمن، من قرية بريه - أوريو لم يرها الناس تبكي طيلة فترة الصباح. أما أوديل، فعلى العكس من ذلك، ولم يكن أحد يوجه إليها الكلام، كما تظاهرالناس بعدم رؤيتهم لها، فقد انفجرت منتحبة مرتين، مرة في الكنيسة، عندما رش الخوري ماء مقدساً على النعش، ومرة ثانية في المقبرة، عند سماعها صوت أول جرفة من التراب فوق التابوت. لقد بكت كثيراً بأصوات تمزق نياط

القلب من أعماق حنجرتها، وإنها لو لم تكن فتاة مضيّعة، لاحتاج الأمر لامرأتين من أجل سندها.

أما ماري، فكانت تكتفي بالتمخط، وبهيئتها وكأنها لاتنظر أحداً، وأن تلقي دوما نظرة مبهمة وأن تخفض جفنيها بمجرد أن يراقبها أحد ما.

ومع هذا، فقد عملت ما كان عليها أن تعمله: كان هناك لحم مسلوق مع الخضار طيب المذاق، قامت بملاحظته جارة أثناء عملية الدفن، كما أعطي الخباز لحم روستو كي يقوم بطهوه، وقد أتى به.

احتفظ العديلان بالرصانة الملائمة عندما يكون للمرء مسؤوليات. كان بنسمن يشدّ من حين لآخر على شاربيه الطويلين الأشقرين ولم يكونا كثيفين كفاية كي يعطياه مظهر رجل غولي، من برابرة فرنسا الأوائل، وكانت وجنتاه بلون وردي غريب بحيث ظن كثيرون أنه مسلول.فصرّح قائلاً وهو ينظر إلى جوزيف بعينيه الزرقاوين بلون السماء:

- سأتكفل تماما بالإبن الأكبر.

لأنه علاوة عن أوديل التي لم تكن مجال حديث، وماري، التي كانت كبيرة كفاية فتستطيع تدبّر أمورها، بقي هناك ثلاثة أولاد.

كان جوزيف يبلغ الثالثة عشرة، ركبتاه ظاهرتان، ونظرته مرتابة، لاسيما عندما كان خاله بنسمن يثبت نظره عليه وهو يفكر. احتجّ قائلاً: لا أريد أن أذهب إلى مزرعة ! ودفع صحفته المليئة بمسلوق ذي لون رمادي. فأجابت خالته بكثير من النباهة، ولديها حسّ باللباقة:

ـ ستذهب إلى حيث يرغبون بوجودك.

لم يكن هناك غطاء طاولة. كانوا يأكلون على القماش المشمع الأسمر الذي عرفته ماري دوماً على الطاولة، وبما أن الغرفة لم تكن متّسعة كفاية، فقد ترك الباب المطّل على الطريق مفتوحاً.

قال بوسو بعد أن مسح فمه لكي يعطي وزناً أكبر لمداخلته:

ـ كما ترى، يافيلكس، سوف أقول لك أمراً حسناً. أن تأخذ جوزيف! كما تقول، أخيراً! ذلك أمر جيّد جداً! تملك أراضي أكثر مني وقد تعوّدنا الإصغاء إليك. فقط إن أنت أخذت جوزيف، وهو قوي منذ الآن، وأن آخذ أنا هوبير، الذي لايزال في الثامنة، فمن العدل أن تأخذ البزّاقة معه! ذلك ما وددت قوله...

والتفت إلى زوجته وقد سرّه أنه أحسن الكلام تماماً.

هوبير، الذي كان مجال الحديث عنه كان طفلاً رأسه كبير، ورقبته نحيلة، وكان يراقبهم، بعضهم بعد بعض، دون أن يفهم شيئاً مما يجري. أما البزّاقة، وكانت الأخيرة، فتاة تبلغ الرابعة من العمر، سمينة وهادئة، يلطخ وجهها على الدوام المخاط وبقايا الطعام.

وتناقش العديلان:

يجب اجراء الأمور وفق العدالة. وقبل أن يستطيع هوبير تقديم الخدمات...

وتم الحديث أيضاً عن الشهادة الابتدائية. كانت ماري تأكل وهي واقفة، مثلما رأت دوما أمها تأكل، وكما يجب أن

تأكل النساء اللواتي عليهن خدمة الجميع. ارتدت مريلتها فوق ثوبها الأسود ولم يستطع أحد القول بم كانت هي تفكر به.

- أما أنت، أيتها الماكرة، فمن المستحسن أن تعملي في المدينة، لدى أناس جدّيين...

مضى زمن طويل وهم يطلقون عليها اسم الماكرة لكن الأمر كان سيّان لديها. لم تكن تخاف زوجي خالتيها، ولاخالتها ماتيلد، والتي كانت مع هذا شقيقة أمها.

- أتسمعين ما يقال لك؟

كانت بالطبع تسمع، لكن مافائدة الإجابة، بما أنهما مع هذا سيزعلان؟

- ألا تستطيعين فتح فمك عندما نكون جميعاً مهتمين بك؟

- سأظل في بور!

- ماذا تودّين فعله في جحر مثل بور-أنبسن؟ لن تجدي على الأقل وظيفة...

- لدي وظيفة .

- وأين ذلك؟

- في مقهى البحرية.

- تريدين أن تعملي في مقهى، في الوقت الحاضر؟ لكي تؤولي إلى ما آلت إليه أختك؟ كانوا يقولون ذلك أمام أوديل، ولم تكن تفكر بالاستياء. كانت أوديل تأكل، وتصغى إليهم، مكتئبة، ذلك بالأحرى لأن البرد أصابها في المقبرة بدل من أي شيء آخر.

لم يطلب منها أحد البقاء من أجل الغداء. ولم تكن متمسكة بذلك هي أيضا، لكنها بقيت مع ذلك، معتبرة أن

الأمور يجب أن تتم على هذا النحو. في البداية، دهش هوبير كثيراً من أظافرها المطلية باللون الأحمر، أما الآن فقد تعوّد الأمر وعلى الأخص فقد أكثر من الطعام حتى انه بقي بلا حراك، وقد احتقن وجهه، وضاع في حلم.

كان يعرف أنهم تكلموا عنه، وعن البزّاقة، وعن جوزيف، لكنه كان يجهل ما قرروه على وجه التحديد وكان ينتظر فطيرة التفاح، التي وضعوها على السرير لأنهم لم يجدوا لها مكاناً سواه.



وفي مقهى البحرية، أكل شاتلار سمكة موسى الخاصة به قرب النافذة ثم، ومن أجل تمضية الوقت، لعب لوحده بالبليار، لأن الآخرين ذهبوا لتناول الغداء. وفي نهاية الأمر، دخل إلى المطبخ، حيث صاحب المقهى كان يأكل مع ربة المنزل، وجلس بألفة مفرشخا على كرسي قعره من القش.

ـ لاتزعجا نفسيكما من أجلي!... هيا! هل تعتقدان أن الوجبة ستدوم طويلاً، في الأعلى؟

فأكد صاحب المقهى الذي لم يكن يحب أن يأتي الزبائن ليروه كيف يأكل قائلاً:

ـ حتما حتى الساعة الثالثة.

ـ وماذا سيحلّ بها، الصغيرة؟

ـ ماري؟ سوف نأخذها هنا بدءاً من هذا المساء. إنها هي التي طلبت ذلك...

ـ وكم تدفعون لها؟

- مئة فرنك شهرياً، مع السكن والطعام والإكراميات...

- هل عليها أن تقوم بالتنظيف؟

- بالتنظيف وما يتبقى... فتاة الصالة الأخرى تتركنا لأنها حملت مرة ثانية.. فقال شاتلار:

- سأضمها مسروراً إلى عملي.

- من؟

- ماري، بالطبع!... وليست الأخرى... ألا تعرفان مقهى شاتلار، على رصيف الميناء، في شربور؟

- ذلك أنت؟

- ذلك أنا... قل لي، هل الأمور تسير بعض الشيء، هنا؟

والآن، صار وكأنه في منزله، كان يناقش أمور المهنة، ويصب القهوة من الركوة التي كانت على الفرن.

- لا أعرفها... لقد رأيتها فقط تمرّ قبل قليل مع الموكب... إنها لاتشبه أختها، أليس كذلك! كان يعود بالحديث عن ماري، وهي بالفعل، مختلفة قدر الإمكان عن أوديل. كانت أوديل سمينة لونها وردي وطري، وجلدها ناعم، وعيناها واسعتان مثل عيون الأطفال، وتبدو لينة العريكة مطواعة. كانت تحمرّ أو تبكي من أجل لا شيء ولم تكن تعرف ما تفعله لكي يكون الجميع مسرورين.

أما الأخرى، بالكاد بالغة، وصدرها مسطح تقريباً، وأردافها طويلة وبطنها مكوّر، وشعرها على الدوام ممشط على نحو رديء ومتيبس، لم تكن تهتم بالناس وتهتم أقل من ذلك بأن تضفي السرور عليهم. كانت تنظر إليهم خلسة، وتفكر حتما بشيءما، لكنها كانت تحتفظ به لنفسها.

ـ كان جول المسكين رجلاً طيباً... أنفق كل ما كان لديه في علاج زوجته، التي بقيت خمس سنين كما لو أنها عاجزة، مع أطباء على الدوام في المنزل وعمليات كانت تكلف غالياً جداً...

لم يكن شاتلار هنا في سبيل إظهار عطفه. ومن حين لآخر، كان يذهب ويمكث أمام النافذة وينظر إلى الجسر الدوّار، وإلى عربتي الخيل، وإلى الشارع الضيق الذي كان يبدأ هناك وحيث الوجبة لم تكن قد وجدت نهايتها.

وعلى الجدار، قرب ذيل طاولات البليار، كان هناك منشور يعلن:... بيع علني لسفينة صيد جيبية بمحرك...

وبما أنه، لم يكن يستطيع رؤية شيء دون الاهتمام به، سأل صاحب المقهى:

ـ ماهي، هذه السفينه؟

ـ تلك التي ستباع الساعه الثانيه؟ في الواقع، لن تكون سفينة سيئة لولا أنه حصلت لها مصائب...

ـ أية مصائب؟

ـ مصائب! جميع تلك التي تحصل لسفينة... ففي الشهرالماضي، فقط بعد يومين من تركه شباكه عالقة في قعر البحر، أراد الانطلاق، في مساء كان الظلام فيه أكثر حلكة من العادة... ورجل الدفة، الذي تناول بعض الشراب، ظن أن الجسر مفتوح ودخل فيه... كسر صاريه وأوشك رجل أن يسحق... ومنذ ستة شهور، اقتلعت ساق نوتي فتي بحبل فولاذي في اللحظة التي كانت سفينة الصيد الجيبية تنعطف بها...

وفي الأعلى، قرب نهاية الوجبة، صار الحديث أكثر بطئاً و أكثر ثقلاً وانتهى العديلان إلى قصة حيوانات معقدة نوعاً ما، فيما سقط الأطفال من النعاس. وضعت ماري كوز شراب الكالفادوس على الطاولة وظلت واقفة، بينما أشارت لها أختها أن تلحق بها إلى غرفتهما القديمة.

- اسمعي يا ماري... تعرفين تماما، أنت، أنني لم أكن مطلقاً خبيثة... إنهم جميعاً ضدي لأن لي صديقاً، لكنهم يخترعون أفكاراً... لو كنت مكانك، لأتيت إلى شربور... سآكلم شاتلار وأنا متأكدة من أن...

بالنسبة لبور- انبسن، كان حقاً يوماً استثنائياً، على هامش التقويم. إنه أكثر من يوم أحد أو عيد العنصرة أو جميع القديسين. في البداية، كان دفن جول المسكين، ذلك لايحصل كثيراً، وعلى الأخص لاشيء مع أصحاب مراكب الصيد في سبيل حمل النعش من جانب إلى آخر.

وها أنه، حالياً، الجميع كانوا على رصيف الميناء، قرب السفينةجان التي لم يصلح صاريها. واحتفظ الناس بملابس الصباح الجيدة وبالأحذية المطاطية.

وبما أنهم لم يكونوا يقومون بعمل، تابعوا نوبات شراب الكالفادوس، لدرجة أنهم تكلموا بصوت أعلى من المعتاد، ولديهم انطباع أنهم يناقشون قضايا رئيسية.

جاءت سيارتان بالسادة من مدينة بايو، وهم كاتب العدل وكاتبه الأول، ثم دائنو مارسيل فيو، وكان الوحيد الذي لم يرتد ملابس يوم الأحد.

وكان جماعة بايو يأنفون من الدخول إلى أحد مقاهي

رصيف الميناء وشكلوا مجموعة لوحدها قرب سفينة الصيد الجيبية. وكانوا بانتظار الموعد. كانوا، هم أيضاً، يناقشون أمورهم، بينما كان فيو، وهو طويل أشقر، وكانت حدقتاه الشاحبتان كأنهما تعكسان جميع مصائب العالم، وكان ينتقل من مجموعة إلى أخرى وهو حزين وحذر.

ماذا كان بالامكان أن يقال له. كان الناس يشدون على يده. كانوا يفعلون ذلك دون أن يؤمنوا كثيراً به.

- لن يكون هناك هواة...

لكن كان الأمر أصعب أن يقول المرء ما يشعر به لفيو منه في توجيه التعازي إلى أقارب جول المسكين، الذي مات.

لأن فيو لم يمت! هو كان هنا! وكان الأمر أكثر مدعاة للحزن، وأكثر إحراجا بكثير!

أما بالنسبة لماري، فقد كان بالامكان جمع لمّة، وبمجرد أن يدفع المرء حصته، حسب إمكانياته، فإنه يشعر أنه بسلام مع ضميره. مع هذا لم يكن بالامكان جمع لمّة لمجهز سفن لم يحالفه الحظ!

لأن الأمر كان على هذا النحو! لم يحالف الحظ مطلقاً فيو. عندما اشترى سفينته، وبعد أن توجه إلى شركة للإقراض، اعتقد أن بامكانه التظاهر أنه شخصية مهمة. وحسب قوله، إن الذين لم يكونوا يكسبون المال بسفن الصيد الجيبية، ذلك لأنهم يجهلون كل شيء وأنهم كانوا كسالى.

ذلك لم يمنع أنه عانى من الكمبيالات، ثم من التأمين، لأنه في إحدى المرات اصطحب شيخاً لم يكن مسجلاً على الدور، ثم المرة التي فقد فيها دفته، فقد توجب عليه أن يقطر

سفينته إلى إنكلتره حيث تمت مطالبته بمبالغ غير معقولة...

وقال الناس له:

ـ لم يكن عليك مطلقاً أن تعمل لحسابك. لم تُخلق لذلك. حتى إنك غير متعلم...

لقد أصر على ذلك طيلة خمس سنين، لدرجة أن هناك حالياً محاكمة وأن السفينة جان سوف تعرض للبيع.

أعلن الكاتب العدل :

ـ أيها السادة إنها الساعة الثانية!

صاروا يتمازحون. كان وقت الجزر. ومن أجل النزول إلى السفينة، كان يجب استعمال سلم حديدي كان لزجاً وأن يبتعد المرء مسافة متر عن الطين. كان الكاتب العدل مرتبكا بمحفظته الجلدية، وبمعطفه، وبقبعته المكوّرة التي كانت على وشك أن تطير.

تمت مساعدته. وانتهى الأمر بالترتيب فقد نزل البعض على سطح السفينة، وبقي الآخرون واقفين عند جانب رصيف الميناء، وكانوا رصينين مثلما كانت حالهم في الصباح أثناء صلاة الجنازة.

كان في البداية قراءة لم يفهم منها شيء ثم ذكر رقم.

ـ وضعت بثمن أساسي، مائتا ألف فرنك... قلت: مئتا ألف فرنك...

نظر الناس بعضهم إلى بعض، ومن زمرة لزمرة: كانوا يعلمون أنه ما من أحد في المنطقة يقوم بالمزايدة، أولاً لأن الأمر يتعلق بفيو، وكان رجلاً طيباً، ثم لأن الناس كانت لهم همومهم الكافية مع السفن.

حاولوا أن يعرفوا، إن كان أحياناً لم يأت أحد من كان، من هونفلور، أو حتى من فيكان، كما أعلن البعض ذلك.

- قلت مئتا ألف فرنك...

وكان الكاتب العدل ، هو أيضاً ينظر على التوالي إلى الوجوه الصارمة التي تحيط به، لعله كان يستشف شيئاً من التهكم في النظرات؟

كان فيو يبكي. إنها المرة الأولى التي يراه الناس فيها يبكي. كان يقف خلف الجميع ويبكي دون أن يحاول إخفاء وجهه.

- مئتا ألف... ألن يقول أحد كلمة لمئتي ألف؟... أيها السادة قدموا عرضكم...

صاح رجل مضحك قائلاً:

- عشرة آلاف.

وحصلت موجة من الضحك.

- مئتا ألف... مئة وتسعون ألف... مئة وثمانون ألف...

كانت النساء المتسربلات بالسواد يقفن بعيداً، لأن مكانهن لم يكن هنا، لكنهن كن يفهمن مجرى الأمور. وكان الصبية ينسلوّن بين الأرجل والناس يدفعونهم.

- قلت: مئة وثمانين ألفاً...

لقد كلف المحرك، وحده، ثلاثمائة ألف فرنك قبل خمس سنين مضت.

- مرة... مرتين!...

كان الجو كئيباً تقريباً أكثر مما كانت عليه الحال في المقبرة، لاسيما وأنهم وضعوا صاري السفينة جان المكسور عرضانياً فوق السفينة. وأدار الناس رؤوسهم باحثين بأنظارهم

عن فيو. وكانوا مسرورين من رؤية شحوب أهم دائن، وهو يهمس في أذن الكاتب العدل. وحصل المدّ. وارتفع الماء مشكلاً تياراً في الحوض، وتابعت طيور البحر الفضلات العائمة وهي تزعق. وكان الدائن هو الذي لاحظ أول الجميع أحدهم في الجمع فانحنى نحو الكاتب العدل. وبحث هذا الأخير بعينيه. ثم أعطى إشارة.

- مئة وثمانون ألفاً هناك...

وتحركت رؤوس الجميع. وانتهى الأمر بأن لمحوا شاتلار، الذي كان يبعد جيرانه للوصول إلى الصف الأول.

- مئة وثمانون ألفاً... ما من أحد يعطي رقماً أفضل؟ مرة...

واستشار الكاتب العدل الدائن، الذي أعطى إشارة برأسه.

- ... مرتين... ثلاث مرات... لُزِّم!... وكان الوضع وكأنه خلاص. وبعدها، أصبح بالإمكان التحرك، والانتقال، والتكلم بصوت عال. كان الناس يحومون حول شاتلار الذي نزل على السفينة، كرجل تعوّد السلالم الحديدية واقترب من الكاتب العدل. أخرج محفظة من جيبه، واستخرج منها أوراقاً، بينما حاول ثلاثة رجال جرّ فيو إلى الحانة.

- اتركه!... إنه ليس من هذه المنطقة... وهو قبطان لعله يأخذك؟...

كانت الجماعة الصغيرة تتحادث على سطح السفينة، وتركت الجماعات الأخرى فراغاً أكبر فيما بينها وهكذا استطاعت أوديل الانسلال وهي دوما بملابس الحزن الشديد،

ويحجابها من الكريب الذي رمته إلى الخلف. وقالت: بسست!... وقد انحنت فوق طين الحوض.

لم يرها شاتلار. ودلّه الكاتب العدل عليها. وقالت أيضاً:

- أنا هنا!

كما لو أن الناس لم يتبينوا ذلك فصاح شاتلار قائلاً وقد أدار ظهره وتابع حديثه:

- إذن إبقي هناك.

ولم تدرِ ماذا تفعل. بقيت هناك، بين الناس الذين كانوا ينظرون إليها، لكنهم لا يوجهون الكلام إليها. وانتهى بها الأمر أن توجهت إلى السيارة، ولم تتجرأ مع هذا على الصعود إليها وحدها.

- من الذي سوف يكلمه؟

لم يكن الأمر يتعلق بها بل بالمالك الجديد للسفينة. فقد وعد الناس فيو أن يكلموه، وأن يقولوا له إنه لن يجد قبطاناً أفضل منه و إنه علاوة على ذلك بحاجة لكسب عيشه لأن لديه ابناً يدرس وابنة ليست مثل الآخرين. على سطح السفينة جان، كان سكان المدينة مازالوا يثرثرون ويبدوا في مزاج ممتاز. ومن الجهة الثانية من الماء، قرب الجسر الدوار، كان أفراد عائلة بوسو وأفراد عائلة بنسمن وقد احتقنوا بعض الشيء لأنهم أكثروا من الطعام ومن الشراب، وكانواينتظرون أن تنتهي ماري من تهيئة شقيقيها وأختها.

كان الابن الأكبر، جوزيف، حانقاً وينظر إلى أفراد عائلة بنسمن بشراسة وقد رفعوه إلى العربة.أما هوبير، هو، فكان يتبع طائعاً، وتركهم يضعون له وشاحاً من الصوف وتلقى دون

تردد قبلة أخته.

يقيناً، لم يكن يدرك مطلقاً ما يحصل له حتى أنه لم يعرف أين هو ذاهب!

أما البزّاقة الأخيرة، وهي دمية كبيرة متسخة دوماً وقد استخدمها أخواها وأختاها لعبة، فقد تم تطييب خاطرها بأن وضعوا لها تفاحة في يدها، لدرجة أن ذهابها كان على وجه الإجمال متابعة لوجبة رائعة. اجتازت العربتان الجسر. وعلى رصيف الميناء، توجب على المجموعات أن تتنحى لتركهم يمرون، وعلق الناس بالكاد اهتماماً عليهم لأنهم أغراب، أناس ريفيون، فقط بضع نسوة تأثرن من مصير البزاقة، التي كان الناس جميعا ينعتونها بهذا الاسم لأنها وبعد أن بلغت الرابعة من العمر فقد استمرت بعادة جرّ نفسها على الأرض، كما لو أنها كانت سمينة زيادة فلا تستطيع الوقوف دون أن تتعب. عادت ماري إلى بيتها. وحركاتها حركات كل الأيام، وسخنت ماء من أجل الجلي، ثم كنست الأرض، لأن الناس تركوا كثيراً من الأوساخ.

لقد سمعت بوضوح صوت أقدام في الشارع، وصوت مدقة. إلا أنها لم تعر ذلك اهتماماً، فقد كانوا على الأقل عشرة رجال، في بور، لهم ساق خشبية.

- ماري!

كان ذلك شارل السمين، يلازمه الجدّ على الدوام وكان الوحيد الذي كان يرتدي قبعة رجال الباسك منذ أن شارك، قبل خمسين عاماً، بموسمين لصيد سمك السردين في سان جان دلوز.

- أتيناك بالقائمة وبالمال...ومع هذا فقد تمكنا من جمع ألف وثمانمائة فرنك وبضع السنتيمات..فسألتهما قائلة:

: ولأية غاية؟

- من أجل مساعدتك... نعم ما هو الأمر... لديك مصاريف...

كان كلاهما ثملين بعض الشيء. كما هو مسموح بأن يكون عليه المرء في يوم استثنائي كهذا حتى إنهما كليهما أرادا تقبيل ماري واضطرت هذه أن تقدم لهما الشراب!

- انتظرا فقط حتى أشطف الكؤوس...

أما شاتلار، فقد كان مسروراً، صحيح أنه كان على الدوام مسروراً من نفسه، لأنه كان ناجحاً في كل شيء! كان يسير بمحاذاة رصيف الميناء ويقف أمام صياد سمك يقترب منه على نحو أخرق.

- ما الأمر ياصديقي القديم ؟

- هذا هو الأمر... إنه يتعلق بفيو.

- أرجو أن لاتكون تود أن تطلب مني أن آخذه كقبطان، أليس كذلك؟ لا ياصديقي القديم... كل ماتشاء لكن ليس هذا. إني أكره الناس الذين لا يحالفهم الحظ!...

- ذلك أن...

- اسمع! إني على عجلة من أمري! وأفضل أن أقول لك حالاً إنه، إن أنا اشتريت السفينة جان، فذلك لأن لي فكرتي ولي الحق تماما أن تكون لي فكرتي، أليس ذلك صحيحا؟ وبترحاب ربت على كتف محدثه، ثم اقترب من السيارة التي كانت أوديل بقربها تمشي بصبر جيئة وذهابا.

ـ وبعدها؟ من أجل أختك؟

ـ إنها لا تود المجيء .

ـ هل قلت لها إن مقهى شاتلار هو لي؟

ـ إنها تتمسك بالبقاء هنا.

ـ لعلك أسأت التصرف، كما هي الحال دوماً... لابأس بالأمر!... لابأس بالأمر!... اصعدي!... علي أن أعود من حين لآخر إلى هنا، الآن أنا مجهزسفن في المنطقة... سأتكلم معها...

لم يكن قد رأى ماري إلا قليلا. مجرد وجه، خيال، في الصباح، على رأس الموكب. ولم يمنعه ذلك من القيام بحركة آلية بالاستدارة نحو الجسر، نحو الزقاق. وسأل:

ـ أهي تبكي؟

ـ كلا!

ـ ماذا تفعل؟

ـ لا شيء... تقوم بالجلي...

وانزلق إلى المقود، أجرى التماس، وزمرّ قليلاً، لأنه كان هناك أناس أمام السيارة. وأكد بهيئة من يفكر بأمر آخر:

ـ تعلمين! لايلائمك الحزن...

ثم، وبعد أن ألقى نظرة أخيرة باتجاه الجانب الآخر من الجسر بدأ يتحرك وهو يصفر بمرح.

- ٢ -

- أأنت ذاهب إلى بور؟

أجاب شاتلار بدمدمة وكان يحلق ذقنه أمام الخزانة ذات المرآة.

- ألن تصطحبني هذه المرة أيضاً؟

لعل الوقت كان بين الساعة التاسعة أو العاشرة صباحاً. ومن النافذة، كان شاتلار يرى أرصفة ميناء شربور، التي فقدت حركتها الصباحية كمرفأ صيد وهي غير ذات فائدة بالنسبة لبقية المدينة.

كانت الساعة هي التي يكون فيها ضوء الصباح أخضر أزرق بعد، تلك التي يجرون فيها الأعمال الرتيبة، ولو أن شاتلار شق الباب لسمع نادليه يضعون المعجون في المقهى مع كثير من النشارة والكاريونات.

وتمطت أوديل قائلة:

- ألم تستطع إقناع أختي؟

إن صوتها، وهو رخو في الحالة العادية، يزداد رخاوة عندما تكون في السرير. وبالنسبة لها كان للسرير معنى مختلف تماما عما يعنيه لأي إنسان.

لم تكن أوديل، بالفعل، شرهة ولا يهمها كثيراً أن تكون حسنة الهندام وكان مستحيلاً تعليمها أن تضع أحمر الشفاه والمساحيق على نحو صحيح. كانت غير بخيلة حتى إنها لم تكن تعرف ما تحويه محفظتها التي تتركها في كل مكان! لم يكن لأوديل عيوب، ولم يكن لها طموحات.

إلا أنها منذ كانت في الثالثة عشرة من العمر وإلى أن بلغت الثالثة والعشرين كان يسحبها من سباتهاكل يوم، صيفاً وشتاءً، في الساعة الخامسة صباحاً، منبه يصرّ. كانت ساقاها عاريتين، وفمها دبقاً ورأسها فارغاً وحركاتها فيها خرق. خلال عشرة أعوام قامت بتهيئة قهوة للآخرين؛ وأدفأت الغرف قبل أن يخاطروا بأنفسهم عند تركهم سريرهم. وقامت بمسح الأحذية حتى تتنشط.

وبسبب ذلك، وليس سوى ذلك، صارت أوديل خليلة شاتلار. كما إنها كانت ستصبح خليلة أي كان. ظلت هناك ، في القعر الدافئ من السرير الذي مازالت تفوح منه رائحة الرجل. وكانت تنتظر إلى شاتلار يرتدي ثيابه في صبيحة الشتاء هذه وقالت دون قناعة:

- لماذا، طيلة الأسبوع لم ترغب ولو لمرة واحدة أن أكون معك؟

- لأنك لن تكوني مستعدة حتى وقت الظهيرة!

ذلك كان صحيحاً. كانا قليلي الملاءمة احدهما للآخر لدرجة كبيرة. فشاتلار الذي نام الساعة الثانية أو الثالثة، لأنه كان عليه دوما مقابلة أشخاص بعد السينما، نام قليلاً، وقد اغتسل بالماء البارد؛ وصار جاهزاً يفيض بالحياة التي تملؤه.

كانت الشقة قديمة وريفية، دون رفاهية، حتى دون حوض استحمام حقيقي، بينما في الطابق الأرضي كان المقهى من أكثر مقاهي شربور حداثة، وفي الطابق الأول، قرب طاولات البليار، كانت المراحيض تلمع وهي مصنوعة من الفسيفساء. وشاتلار هو الذي أقام كل شيء، منذ أن ورث عمه، قبل أربع سنوات، بينما لم يكن المقهى سوى مقهى قديم مثل المقاهي المجاورة على رصيف الميناء. وهو الذي أقام قاعة السينما المجاورة والتي أسموها "علبة الملبس". واختار من أجلها المخمل ذا اللون الأحمر المائل إلى البنفسجي، والإنارة الخافتة، والمرايا في اطارات من الحديد الزائف، لكنه لم يفكر مطلقاً في تبديل أي شيء كان في المسكن. كان على هذا النحو. كان ينفق ألفي فرنك على بذلة ويتركها تتلف تحت المطر، أو أنه يرمي السترة وقد جعلها مثل الكرة على أرض سيارته.

تكلف دفع ثمن علبة سجاير من الفضة والذهب، لكنه كان يدخن السجائر الخاصة برجال الجيش.

كان من عامة الشعب. فإذا اتخذ أوديل، بينما كانت فتاة لتظيف الصالة، فلعل ذلك لأنها كانت من عامة الشعب أكثر منه. لقد اختارها متحدياً، لكي يظهر لخليلة كانت تحاول أن تهيمن عليه، أنه لا يأبه بالنساء.

وسألت أوديل وهي تتلذذ بكسلها:

ـ هل صلحت الأمور بالنسبة للسفينة جان؟

كان بامكانها التحدث على الدوام ! فمنذ ستة شهور وهما معاً، كان عليها أن تعلم أنه نادراً ما يتكلف عناء إجابتها. لم يكن عليها إلا أن تتبعه عندما يصطحبها، دون أن تقول شيئاً، وأن تجلس في زاوية عندما يقوم بلعبته أو عندما يتناقش مع أصدقاء. ومقابل ذلك كان يربت أحياناً على كتفها ويبدو عليه أنه يعترف أنها دابة خدومة.

وكان هو، مع هذا، الذي سأل وهو يشد رباط حذائه:

ـ كم يبلغ عمرها على وجه الدقة؟

ـ ماري؟ انتظر... بيننا نحن الاثنتين صبي مات... كان أصغر مني بسنتين ونصف... تبلغ الآن السابعة عشرة والنصف... ألم تكلفك بقول شيء لي؟

ـ لا .

ـ لماذا لا تود المجيء إلى شريبور؟

ـ وهل أعرف ، أنا؟

أتم ارتداء ملابسه، ونظر برضا لنفسه في المرآة، وقال لأوديل، دون أن يذهب لتقبيلها:

ـ إلى اللقاء مساءً!

كان يعلم أنها لن تتزعج من أجل أمور قليلة الأهمية وأنه عند الظهيرة كان هناك أمل بأن يجدها قد عاودت النوم. وفي الأسفل، مرّ من خلف طاولة الشرب، وتباطأ في العمل في درج الصندوق، وطرح بضعة أسئلة على المشرف عليه، ونزل إلى القبو معه ليرى براميل البيرة التي وصلت، واهتم ببلاط يجب

اصلاحه ثم، على رصيف الميناء، بإعلان لصالة عرض السينما ألصق على نحو رديء.

كانت تسح رذاذا، وأرض الشارع وسخة، تغطيها طبقة رقيقة من الطين الأسود الذي احتفظ بآثار الأقدام والعجلات. كان الناس يرون مدخنتي سفينة نقل ركاب كبيرة ألمانية ماثلتين من المحطة البحرية التي كانوا ينتظرون فيها القطار العابر للمحيط الأطلسي.

دخل شاتلار إلى المرآب، وأخذ سيارته، وتوقف أيضاً في طريقه لأنه نسي توقيع وثيقة تأمين ثم ، خلال نصف ساعة، عرف الهدوء ، وقد جلس خلف مقوده، كان هدوءاً موزوناً يقطعه صوت مسّاحة الزجاج.

صار ذلك يشبه أحد الطقوس. إذ حوالي الساعة الحادية عشرة أو الحادية عشرة والنصف، يصل إلى بور-أن - بسن والتي صار الآن يدعوها فقط بور، مثلما يفعل سكان المنطقة. كان يعرف مواعيد المدّ والجزر، ويعرف إن كان سوف يلقى السفن مزروعة في الوحل أو عائمة على الماء المتموج بالمازوت.

كان يعرف سفينته، جان، مباشرة مقابل محل جاكن، ميكانيكي البحرية، ،كان هناك دوماً أناس على الجسر.

لكنه لم يتوقف بعد. ولم يغادر سيارته إلا عند باب مقهى البحرية حيث دخل مسرعاً، دون أن يغلق الباب، وذلك ما لاحظه صاحب المقهى.

- تحية!

لم يكن يقول صباح الخير، بل "تحية" ولم يكن يرفع قبعته

مطلقاً. حتى في المساء، في بهو السينما، عندما كان عليه أن يتكلم إلى السيدات. كل ما كان يتنازل بفعله عندما كان في الداخل، هو أن يدفع بقبعته قليلاً إلى الخلف.

- ماري ليست هنا؟

- إنها ترتب الغرف...

كان يعرف ذلك، لكنه لم يكن يستطيع الامتناع عن طرح الأسئلة. وفي هذه الساعة، كان المقهى فارغاً، وقاعة المطعم، على الجانب كانت فارغة أكثر أيضاً، وكان صاحب المطعم في العادة يكتب قائمة الطعام بعناية، ويذهب أحياناً إلى المطبخ ليطلب معلومة.

كان من الصعب التعود على اسلوب شاتلار، كان يدخل هو أيضاً ويصب لنفسه قهوة، ويأخذ شراب الروم من على طاولة الشراب.

وبعدها، ولعله كان يعتقد أن صاحب الحانة، وهو ماكر قديم، لم يلاحظ شيئاً، كان ينظر إلى يديه، ويتظاهر بأنه يتردّد، ويدمدم شيئاً ما مثل :

- علي أن أذهب إلى المغسلة...

كل ذلك لأن المغسلة كانت في الطابق العلوي، في نهاية الممر الذي تطلّ عليه الغرف الثلاث. في الصباح كانت الغرف مفتوحة وتصبح تحت نفوذ ماري، التي تخلع قبقابها، وتسير بجوربها الصوفي، وتكنس الأرضية، وترتب الأسرّة وتملأ الأكواز.

فقال لها:

- هل الأمور حسنة؟ ألم تنتهي بعد؟

كان يحصل مايلي، ذلك أن ماري كانت معه مثلما كان هو مع أوديل. أي في أغلب الأحيان لم تكن تتكلف عناء الإجابة. كانت تنظر إليه، وكأنها تقول:

- ماذا يريد هذا، أيضاً؟

وإما إن تأخر عند شقّ الباب، كانت تسأل بصراحة:

- ماذا تريد؟

- لاشيء... إني أنظر إليك... وأتساءل لماذا لا تودين المجيء إلى شربور، حيث ستكسبين مالاً أكثر من هنا وتعملين أقل.

كانت ترتدي ثوباً أسود، ومريلة بيضاء، وقبة صغيرة بيضاء حول عنقها. كانت دوماً مشعّثة الشعر مثل أوديل، ولعل ذلك إرث عائلي!

- أهذا كل شيء؟

- اسمعي ياصغيرتي...

- لست صغيرتك... انتبه!... سأنفض السجادة الصغيرة...

كانت تقوم بذلك عمداً وكان كافياً لتعكير مزاج شاتلار. كان يدخل إلى المرحاض. وعندما يخرج منه، لم تكن تفوّت فرصة أن تقول له دون محاباة:

- حاول إغلاق الباب اليوم!

وعندها، أحياناً، عندما كان يمرّ، كان يمد لها لسانه لأنه، بالرغم من بلوغه الخامسة والثلاثين، لم يتعوّد مطلقاً تماماً أن يكون شخصاً متقدماً في العمر.

لم يكن يصير ذلك إلا على ظهر السفينة جان، حيث، بمجرد أن يصل يُتعب الجميع، النجارين الذين يعملون على

سطح السفينة وفي قعرها، والميكانيكيين الذين يفحصون المحرك ويركّبون رحوية جديدة.

كان شغوفاً بتوجيه الأوامر للعمال. ويفضل أيضاً خلع سترته، ومع أن قميصه حريري، فإنه يمسك بقطعة حديد أو خشب، أو أداة أياً كانت ويظهر للناس أنه يجيد عمل أي شيء.

كان يدمدم قائلاً:

ـ عندما كنت على متن السفينة ماري-يسوع...

وبما أنه لم يكن إلا في الساعة الحادية عشرة أو في الحادية عشرة والنصف، كان يستغرب كثيراً رؤية الآخرين ينصرفون ظهراً وكان يعنفهم.

ثم يأتي التوبيخ اليومي لدورشن، الذي كان يدعوه معلم التلاميذ.

ومع هذا فقد أتى به من شربور لكي يقود السفينة جان، وكان دورشن يبذل جهده للإسراع بالعمل.

لم يكن خطأه إن كانت هيئته هيئة معلم نورمندي أكثر مما هي هيئة قبطان. وكان خطؤه أقل أيضاً أنه يضع نظارات وإن كانت ملابس العمل نفسها تعطيه مظهراً خجولاً ومرتباً.

كان سميناً، وردي اللون، عيناه كبيرتان، وضحكته تنم عن الطيبة، كان مهذباً مع الجميع وكان فقط لا يبدو عليه الاعتذار من التوجه بالكلام للناس أو الدخول في أحد المقاهي.

ـ عفواً، ياسيد شاتلار، قلت البارحة أن...

ـ لايعنيني ما قلته البارحة! ما أراه، هو أن الرحوية اليوم ليست في مكانها بعد وأن...

وقليلاً بعد ذلك، يصلان معاً إلى مقهى البحرية حيث كان

دوماً، في مثل هذه الساعة، صيادون يتناولون مشروباً فاتحاً للشهية. وكان شاتلار يعرف أنهم غاضبون عليه، لأنه اشترى السفينة جان ولم يشغل عليها فيو. كانوا سيغضبون على أية حـــال، لا لشيء إلا لأنه من شـــربور، وطفح الكيل لأنه أتى بقبطان من هناك.

تظاهر بأنه لم يتبين ذلك(وكان يسلّيه أن يتأخر بينهم ، وأن يوجه الكلام إليهم، وأن يتحدث عن الجو وعن الصيد، وعن أسعار السمك، وعن كل ما يخطر بباله.

كانوا هناك، بملابسهم من القماش المتصلب، وكأنهم كتل منحوتة، بعضهم أزرق، والآخرون بلون يميل إلى الحمـرة، وجميعهم برقعات لونها فاتح أو غامق، ووجوههم غير محلوقة، وينتعلون القباقيب أو الجزمات وكأنها قواعد التماثيل.

وما كان يفعله شاتلار، كان في آن واحد من أجل ماري ومن أجلهم، لأنه لاحظ أنها مرات عديدة اضطرت إلى الابتسام.

انتهى به الأمر أن انتقل إلى القاعة المجاورة وجلس إلى طاولة "المعلم"، وكانت ماري هي التي تقدم لهما الطعام، ملتقية نظرة شاتلار في كل مرة تدخل بلون من الطعام.

لن يستمر ذلك دوما ، لكن إلى أن تعود السفينة جان إلى البحر، كان البرنامج اليومي، تقريباً، بلا تبديل . كان الطبخ جيداً. وشاتلار يأكل كثيراً، ومن ثم وقد دفع قبعته إلى الخلف، يعود إلى السفينة، حيث سبقه العمال.

كان الهدوء مخيماً على الحوض . وفي زوارق الانقاذ، كان الرجال يصلحون الشباك، وآخرون، على الرصيف، يركّبون حبالاً جديدة أو يتركون الشباك الجيبية تجف.

وبعد أن يكون قد عمل أو نظر إلى الآخرين يعملون مدة ساعة من الزمن، كان شاتلار بهيئة بريئة، يقوم بجولة قصيرة في مقهى البحرية حيث كان متأكداً أنه سيلاقي ماري في المطبخ.

لم يوجه مطلقاً الكلام إليها بجدية. كان يعتقد نفسه مجبراً على المزاح. وفي كل مرة، كان عليه أن يجد أمراً جديداً، وبالطبع، لم يكن الأمر طريفاً في كل المرات.

لم تكن تخفي عنه رأيها، وترفع كتفيها أو تقول:

- ذلك ذكي!

وهو كان يصرّ ، يصعب عليه القول لم كان يعود ليحوم حولها بينما كانت فتاة صغيرة وكأنها لاشيء، كما كان باستطاعته الحصول على مثيلاتها بالعشرات.

في البداية، ظن أنه سيكون سهلاً عليه أن يصطحبها معه إلى شربور، وأسمعها أنها لن يكون لديها عمل كثير هناك.

كانت عنيدة، متشبثة برأيها، فتجيبه قائلة:

- وإن كان يعجبني أن أعمل ؟

- عندها سوف تعملين...

- لايعجبني أن يوجه إلي الكلام بالمفرد...

- جميع الآخرين يفعلون ذلك تماماً...

كان ذلك صحيحاً. فأكثر صيادي السمك، إما رأوها عندما ولدتها أمها، أو أنهم لعبوا معها في الشارع. ويوجهون الكلام إليها بالمفرد.

- ليس الأمر سيان...

- مفهوم، يا أميرة!

ويتظاهر بأنه يمزح لكنه في نفس الوقت لم يكن يستطيع الامتناع عن رميها بنظرة رصينة ، مؤثرة تقريباً. وقالت في احدى المرات :

- تكفي واحدة في العائلة !

لم يجد ما يجيب به. وفي المساء كان كريهاً قدر الامكان مع اوديل ، لدرجة أنه جعلها تبكي، ولم يكن ذلك سهلاً.

- ألديك محب؟

- ولم لا؟

- شاب من هنا؟

- إنهم لايقلون عن فتيان شربور!

فيغتاظ، ويذهب إلى السفينة، ويعود بعد ساعة فيجدها تقشر الخضار.

- أنت ، مرة ثانية؟

ماذا كان لديها أكثر من الأخريات؟ كانت نحيلة، بالكاد تم تكوينها، وكان صدرها يظهر بالكاد تحت صدارها المشدود كثيراً، كانت عيناها أقل اتساعاً بكثير من عيني أختها وفمها دقيقاً. كانت دوماً إمّا مستاءة أو حزينة ، أو مزدرية، ولم يكن المرء يستطيع معرفة ذلك.

وأخيراً، مامن لحظة كانت فيها لطيفة معه، وإذا صدف أن قامت بخدمته، فإنها تصب جزءاً كبيراً من كأسه وهي تضعه على الطاولة.

- اسمعي يا ماري...

- اسكت!... ترى تماماً أنني أصغي للمذياع...

كان ممتعضاً، مهاناً! كان حانقاً من نفسه، هو شاتلار،

رجل يعرفه الناس جميعاً في شربور، أن يحوم حول تنورة سوداء لفتاة صغيرة تعامله ليس أكثر ولا أقل من معاملتها لصبي بمثل سنها.

ولأنه امتعض، كان يعاود الهجوم، ويمزح بسماجة أكبر فيجعلها توبخه.

صاحب المقهى، الذي كان سابقاً سائقاً لدى عائلة عريقة، تنبه حتماً للعبة، وكان شاتلار ينظر إليه شزراً وانتهى به الأمر إلى كرهه لأنه تصوره، وبمجرد أن يكون غادر المقهى، يقترب من الفتاة الصغيرة ويسألها:

ـ وبعد، ما الذي حكاه أيضاً؟

بئس الأمر بالنسبة للمعلم! كان هو الذي يشرب عن الآخرين، هو والميكانيكيون الذين كان شاتلار سينكل بهم بعد كل جلسة في مقهى البحرية.

ودّ لو سأل أحدهم فيما إن كان لماري عشيق ما، لكنه لم يتجرأ. كان يرى فيو أحياناً يقوم بجولة على رصيف الميناء، ويحوم حول سفينته السابقة ولم يكن شاتلار يرغب أن يتأثر.

وقال لدورشن:

لقد عاود العمل كمجرد صياد سمك بالحصة؟ ذلك أنه خلق لمثل هذا العمل. حسن الطالع وسوء الطالع، تلك نكتة. في الحياة، يقوم المرء بفعل ما يجب أن يعمله، نقطة،انتهى الموضوع...

ألم يضاعف هو تجارة عمه ثلاث أو أربع مرات منذ أن ورثها؟ ومع هذا، ابتدأ كصياد، ولم يستطع مطلقاً اجتياز فحص أصحاب السفن.

وبعد ذلك؟ كانت هناك فترات رغب فيها بتبديل كل شيء، أن يقود السفينة جان إلى شربور، لينهي موضوعه مع بور-أن-بسن ومع ماري الشيطانة هذه. كان المعلم ينصحه بذلك،مدّعياً أن السمك يباع بسعر أعلى في شربور، واكتفى شاتلار بأن يجيبه:

- إنك تقول ذلك لأن زوجتك هناك... إذن! بئس الأمر... ستحتفظ السفينة جان ببور-أن-بسن كميناء قيد لها... إنه أمر إما أن يُقبل به أو يترك...

إنه أمر يُقبل به بالطبع، بما أن دورشن كان بدون عمل منذ الصيف!

كل ذلك بسبب ماري!



أجبرت حدبة كسرها مساعد ميكانيكي شاتلار أن يتناول العشاء ذلك اليوم في بور-أن-بسن. ولم يشأ، بالفعل، أن يُترك العمل بسبب الحدبة. فذهب بسيارته ليجلب قطعة التبديل من مدينة كان وفرض أن يستمر العمل مساءً على ضوء مصابيح الأسيتيلين.ولم يكن يتصور أن هذا العارض ستكون له أية نتائج وكان يجهل حتى وجود من يسمى مارسيل فيو، وكان ابن الآخر، مالك السفينة جان السابق.

في الساعة الخامسة، غادر مارسيل فيو مكتب مهندس في بايو حيث يمضي أيامه بسحب الأوراق الزرقاء.

كانت مصابيح الدكان وقناديل الغاز تلتمع منذ الآن. غادر

مارسيل زقاقاً معتماً واجتاز الشارع الرئيسي ودخل حياً مقفراً أكثر من غيره، وهناك اختفى في رواق بناء كبير.

كان ذلك قدره اليومي. كان عمله لدى المهندس يتطلب منه أن يصل متأخراً بضع دقائق إلى دروس الرسم فينسلّ دون ضجة في القاعة الواسعة حيث تنير مصابيح ذات عاكس بنور وهاج طاولات ثبت عليها بالدبابيس ورق أبيض.

كان هناك عالم خارج عن العالم، خارج عن بايو وعن كل ما هو موجود، عالم كانوا قلائل يمضون فيه ساعتين ، كل يوم، كل منهم تحت مصباح لاينير سواه، سوى لوحه الخشبي، سوى ورقته المثبتةبالمسامير، والمساطر المسطحة، والمماحي والفرجارات.

لم تكن هناك ستائر على النوافذ، المرتفعة، العريضة مثلما هي النوافذ الرسمية، لكن لم يكن يرى فيما بعدها سوى الظلمة، وعندما تمطر، كانت قطرات المطر الفضية تسيل على ألواح الزجاج.

والحرارة، هي أيضاً، كانت حيادية، رسمية، كما في مقر المختار، والمدارس، والمتاحف.

كان من اللازم عدم إحداث ضجيج. وإذا سقطت مسطرة على الأرض تحدث ضوضاء وكان يسمع على بعد عشرة أمتار احتكاك الموسى على القلم الرصاص.

أحياناً، كان الطالب يستدير عندما يشعر أن خيالاً خلفه. وكان يرتجف، ويبقى في مكانه، وقد انقبض صدره، وهو ينتظر جملة المدرّس، وهو ينتعل عن قصد حذاء نعله من الكاوتشوك.

خلال ثلاث سنوات ، بذل مارسيل فيو أقصى جهده. والآن فقد بلغ السابعة عشرة وهو لا يزال يبذل جهده، لكن دون يقين، دون أمل، لأنه يعلم أنه بعد قليل سيعلن صوت المعلم المكتوم:

- فيو، إنك بالتأكيد أحد!

لقد وجدوا هذه التورية! ولاحظوا أيضاً أن رأسه أكبر من اللزوم وأن شعره كثيف وينطلق في مختلف الاتجاهات. أما رفاقه، فقد ادعوا أن رائحة السمك تفوح منه وأنهم كانوا لا يستطيعون العمل حوله في دائرة شعاعها خمسة أمتار.

مع هذا، كان عليه أن يتابع، بما أنه تأخر كثيراً فلا يستطيع البدء بشيء آخر وأن فيو الأب كان يصر في هذا الموضوع. لم يكن خطأ الأب بقدر ما كان خطأ المعلم في بور-أن-بسن الذي أعلن، منذ أربع سنين مضت:

- لدى مارسيل استعداد كبير للرسم...

وعندها وبما أن والديه لم يرغبا بأن يصبح صياد سمك، وبما أنه في ذلك الحين كان لديهما بعض المال واعتقدا أنه سيكون لديهما المال على الدوام، فقد قررا أن يجعلا منه رساماً.

رسام أي شيء؟ سنرى ذلك فيما بعد! هناك رسامو السفن وآخرون يرسمون أجزاء المحركات.

كبر مارسيل. كذلك كبرت رأسه. وارتدى سراويل طويلة لم يكن لها مطلقاً ثنية وانتعل أحذية كبيرة جداً على قدميه.

والآن، كان عليه الانتظار سبع ساعات، تحت عاكس النور، وقد انحنى فوق الورق الذي بهره بنوره.

ثم من الساعة السابعة وحتى الثامنة إلا ربعاً، أن يتعرّض للعذاب الآخر الذي لم يكن يتعرض له الطلاب العاديون لأنه لم يكن عليهم سوى العودة إلى أهليهم.

أما مارسيل، فكان عليه انتظار حافلة بور-أن-بسن. كان جائعاً. ولم يكن لديه المال فيدخل إلى المقاهي حيث رأى الناس جالسين إلى طاولات في الدفء، والضجيج والنور.

كان يتنزه، ويرى يومياً نفس البضائع المعروضة دون أن يحاول تنويع طريق سيره لكنه كان يدير في رأسه أفكاراً لا تخطر ببال أحد، لا أبيه ولا صاحب عمله الذي كان يعتبره بطيبة خاطر منحطاً، ولا استاذه الذي كان لا يفوّت فرصة ليتنبأ له بمستقبل شقي.

أحياناً، ومع أنه تجاوز السنة السابعة عشرة، كان يشتري ببضعة دراهم سكاكر يمتصها بأكبر بطء ممكن . ثم ، في الساعة الثامنة إلا ربعاً، كان يتخذ مكاناً في آخر الحافلة سيئة الإنارة. وكانت تتوقف مرتين أو ثلاثاً أمام مزارع قبل أن تصل بور-أن-بسن.

من الممكن أن يشك المرء في أن مارسيل، برأسه الكبيرة الشاحبة، لم يكن لديه سوى أفكار حاقدة تجاه العالم أجمع.

توقفت الحافلة مقابل مقهى البحرية، لكن في هذه الساعة كانت الستائر مسدلة أمام النوافذ وعلى المرء أن يقترب لينظر من الشقوق.

كان هناك صيادو سمك، على الأقل ثلاث طاولات حولها صيادو سمك، وفي أغلب الأحيان لا يعملون شيئاً سوى تدخين غليونهم وهم يتناقشون، وكان فيو الأب هناك أيضاً، ليس بعيداً

عن طاولة الشراب، دوماً في المكان ذاته ودوماً أمامه قهوة ممزوجة.

لم يكن معروفاً كم فنجاناً شرب، لاسيما في هذه الأوقات الأخيرة، لكن رائحة الروم القوية كانت تفوح من شاربه، وعندما يحين المساء، لا يعود يتحمل المعارضة.

ماري أيضاً كانت هناك، هادئة، مشرقة، بلا ابتسامة لكن ليس بقلة صبر، تخدم هؤلاء الرجال وكأنهم أطفال كبار، وتظل أمامهم تصغي إلى ما يقولون ثم تتجه إلى طاولة الشراب فتملأ الفناجين أو الأقداح.

كان مارسيل مجبراً على الذهاب ليأكل. كان بيتهم في طرف الحوض، قرب منزل الميكانيكي. فيو هو الذي بناه وكان جديداً تقريباً، لونه رمادي بلون الفئران، ونوافذه بيضاء.

كان باب الدخول مزججاً، تحجبه ستارة تمرّر النور. ويدخل المرء مباشرة إلى المطبخ، وهناك، كانت مارت تنتظر أمام الطاولة حيث لم يكن عليها سوى شوكة وملعقة وصحن أخيه، لأن الآخرين سبق لهم أن تعشوا.

لماذا، بدلاً من أخت كالآخرين، كان لمارسيل أخت صماء وخرساء تبتسم على الدوام ابتسامة بلهاء.

لم يستطع أن يقول لها شيئاً. توجهت إليه بإشارات لتعلمه ما إن كان أبوه بمزاج جيد أو سيء، لكن في أغلب الأحيان كان مزاجه سيئاً. كان يتناول الحساء، وقد أسند مرفقيه إلى الطاولة، وهو يشهق محدثاً ضجة، لأنه لم تكن هناك حاجة لأن يتضايق. كان هناك سمك أعيد تسخينه، ثم خشاف التفاح، أو أجاصة مطبوخة. كانت تكفي رؤية الأجاص المطبوخ لجعله يكتئب.

بعدها، كان يذهب، حزيناً أكثر مما كان في بايو، خائفاً من فكرة ملاقاة والده الذي كان يدعي منعه من الخروج مساءً.

كان الناس يسمعون تنفس البحر، وضجيج الأمواج على ارصفة الميناء، وصرير البكرات. وبالكاد إن كان جمعاً يكون، كان الناس يرون ستة قناديل غاز. واثنتي عشرة نافذة مضاءة.

كان يسير دوماً في الطريق نفسه ، ويصل إلى قرب الجسر الدوار، ويقبع في الظلمة منتظراً أن يفتح باب مقهى البحرية.

كان ينتظر ماري، ماري التي لم تأتِ ، والتي لم تأت مرة واحدة منذ موت أبيها، ومنذ أن بات هذا الرجل الذي من شربوز لا يكفّ يحوم في بور.

لم يتحرك، وأسند ظهره إلى الحاجز المتجمد. كان يجترّ أفكاراً مريرة، أفكاراً فظيعة، ومشاريع مخيفة لم يتجرأ على ذكرها لأحد، مثل أن يرمي بنفسه في الماء أو أن يذهب دون جلبة فينتظر ماري في غرفتها والتي كان يرى منورها المستدير في سقفها.

فكر أيضاً أن يترصد يوماً ما شاتلار هذا، أن يتوجه بالكلام إليه ويتهدده. أو أيضاً، لماذالا، أن يقول له صراحة إنه يحب ماري، وأنها حبه الوحيد، السبب الوحيد لحياته، الأمر الوحيد الذي له على الأرض، أما بالنسبة له، أي لشاتلار، الذي كان لديه كل مايرغب به، فإن الصبيّة كانت غير ذات أهمية...

كانت هناك فترات يبكي فيها وحده في ركنه المظلم وأحياناً أخرى يضحك هازئاً، وعندما يستدير إلى ضفة الحوض الأخرى، نحو تخشيبة الجمرك، يصرّ بأسنانه ويشدّ

على قبضتيه، لأنه في هذا المكان ، فى الماضي، قبل بضعة أيام، كانا يلتقيان، مساءً، في أمسيات حالكة السواد لدرجة أنهما لم يكونا يرى احدهما الآخر!

كان يهمس، وقد تأكد أنها هي، بوشاحها وقبقابها:

ـ أهذا أنت؟

وتجيب دوماً:

ـ إني متأخرة...

والآن، خلف الستارة، كانت هناك مع كل هؤلاء الرجال ولم يكن سواه لا يستطيع الدخول.

ألم تكن تلك سيارة شاتلار التي توقفت في الزاوية المخبأة؟ وهذا الرجل هل سيتخذها عادة أن يتناول عشاءه في بور ولعله ينام فيها؟

لم يكن الباب يفتح. فلا أحد يدخل، ولا أحد يخرج، لم تكن ترى سوى الستائر الصفراء، وفوقها بعض الدخان والجزء العلوي من منشور دعاية عن نجود بأزهار قاتمة.

ألم يكن كل ذلك ظلماً، أكان يحق لفيو أن يتعاطى الشراب طيلة السهرة في هذا المقهى ويمنع ابنه من وضع قدميه فيه لكي يأتي فيسرّ بكلمة إلى ماري؟

ألم يكن مارسيل تعيساً أكثر من أي كان في العالم؟

خفق قلبه، لأن الباب فتح. لكنه لم يفتح كفاية، بالكاد بما يكفي لرؤية أرجل وقبقابي بحارين عندما خرج رجل.

كان الجو بارداً. ويعلم مارسيل أنه في يوم أو في آخر، سيصاب بالتهاب القصبات أو بذات الرئة، مثلما حصل لابنة عمه في مدينة الهافر والتي ماتت بسبب ذلك.

كان يفضل ذلك! ويتألم كثيراً! ثم فجأة غضب كثيراً واتخذ قرار اجتياز الشارع، وفعل ذلك، ووضع يده على مقبض الباب ودفعه، وقد شعر بدوار لدى التقائه بالحرارة ذات الرائحة.

فات الأوان كي يتراجع. بالكاد كان يميّز بوضوح الأشياء والناس حوله. لعلهم كانوا ستة أشخاص، ولعلهم أكثر يتكلمون معاً، وكان يسير على الدوام، باحثاً عن ماري، ولما لم يجدها وصل إلى باب المطعم ومن ثم اكتشف الشابة تتحدث مع شاتلار!

صار لديه انطباع أنها تضحك. كان أكهب وقال بصوت لم يعرفه هو:

- ماري!

رأى نفسه في الماء العكر لمرآة إطارها أسود. ورأى ما تبقى على نحو أسوأ، ما عدا ثوب ومريلة ماري، ونظرتها المتعجبة، وجبهتها المتجعدة.

وقال صوت ضخم:

- انتبه، أيها الولد...

والتفت في اللحظة التي كان فيها أبوه ينتصب بجهد على كرسيه، كان أطول وأعرض مما كان عليه أبداً، شارباه مبللان وشرارة كريهة في عينيه:

- منذ متى تتردد على المقاهي، في سنك هذه؟

كان ذلك للمتفرجين. كان يعلم أن الجميع ينظرون إليه، وقد استعدوا للضحك مما سيجري.

- أتريد أن تجعلني مسروراً بعودتك إلى البيت دون إضاعة ثانية؟

لكن مارسيل كان متوتراً، وأذناه تطنّان فتلفظ بـ:

ـ ماري!... أريد أن تأتي للحظة...

بالقرب منها، على الطاولة التي كانت تقوم بخدمتها ويغطيها سماط، كان هناك رجلان، شاتلار والمعلم.

ـ ماذا قلت، ياولد؟

كان أبوه منتصباً قربه، وكأنه جدار، وكان على مارسيل أن يرفع رأسه ليستطيع النظر في عيني أبيه.

ـ إني كبير كفاية لأعرف ما يجب علي عمله...

ـ عن أي شيء؟... ماذا تقول؟...

ـ ماري!... لدي ما أقوله لك...

لقد تخيل مشاهد صاخبة بكل حذافيرها، لكن كان ذلك، عندما كان وحده في الظلمة ولم يفكر مطلقاً أن مثل هذه الأمور قد تحصل في الواقع. كان على وشك أن تصطك أسنانه وبغريزته رفع مرفقه ليتقي به الضربات.

لم يكن مخطئاً، إذ اقتربت يد، وأمسكت بأذنه، وشدتها بقوة حتى إن مارسيل صاح من الألم.

ـ أسرع إلى المنزل، أتسمعني؟ أسرع إلى هناك وانتظرني كي أعلّمك كيف عليك أن تعيش...

كان أناس يضحكون. ورأى مارسيل وجوهاً بتعابير مختلفة لكن لم يكن هناك أحد يدافع عنه.

فأعلن قائلاً:

ـ لن أعود! أريد أن أكلم ماري...

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول إني لن أعود، وإنني لن أعود مطلقاً... أقول...

أحدث كرسي ضجة بانقلابه. وتراجع مارسيل، لأن أباه بكل كتلة جسمه كان يدفعه إلى الباب وهو يلوي أذنه.

ـ أسرع، كما قلت لك!... أسرع، أيها الولد الفاسد!...

وصاح مارسيل الغاضب أيضاً:

ـ ماري!...

تعثر. لقد هزوه بقوة وسار خطوتين أو ثلاث إلى الخلف، وفقد توازنه، وصدم بظهره حافة الرصيف. وظل فترة طويلة ممدّداً قبل أن ينهض، وكأنه من أجل أن يتعذب حتى النهاية من الإهانة الموجهة إليه ومن غضبه.

انغلق باب المقهى، وكانت الأصوات تسمع في الداخل.

ـ ٣ ـ

كان يفوح جو متجمد من ظلمةالبحر الحية. كان مارسيل يرتجف من البرد وأكثر من ذلك من الغضب ومن نفاد الصبر. كان محموماً. كان يتكلم وحده، دون التوقف عن التعلق بهذه المربعات المضيئة الثلاث ، من الجانب الآخر من المجرى المائي الضيق، والتي تمثل مقهى البحرية.

ـ لن تأتي... لن تتجرأ على المجيء...

كانت المقصودة بكلامه هي ماري، بالطبع، ووجد مارسيل صعوبة في القول لماذا استعمل كلمة "تتجرأ" لأنها كانت تثير فكرة التحدي، دون شك؟ ولأنه هو نفسه أهين من قبل والده، ورمي إلى الخارج، وقد ارتض في كبريائه وفي جسمه لأنه لم يتجرأ على العصيان؟

كان عليه هو أيضاً بدوره أن يخيف أحداً ما، مثل ماري، التي كانت تعلم الآن أنه ينتظرها خارجاً وأنها لن تتجرأ على المجيء.

لن تتجرأ ليس فقط بسببه، لكن أيضاً بسبب الآخر، بسبب شاتلار: ستشعر بالخجل من أن تبدو وكأنها تلاحق صبياً!

تلك كانت الحياة! وفي هذه الأثناء ، كان البحر يهتاج، ويتخلل الشاب بريحه الرطبة التي تفوح منها رائحة الحمأ. خلف الستائر ذات اللون السكري، كان الرجال يتكلمون، ويشربون، ويضحكون، رجالاً أفظاظاً يرون ماري تمر بالقرب منهم، ويسمعون صوتها فلا يتأثرون به.

- لن تتجرأ على المجيء! كنت أعرف ذلك...

كانت هناك أرضية غش في حالة مارسيل، لأنه كان يكرّر القول بقوة كبيرة أنها لن تأتي، وكان ذلك بأمل أن يخطيء فأله.

- لن تأتي!

وحصلت المعجزة أخيراً، بأكثر طبيعية في العالم، طبيعية لدرجة أنها كانت مضلّلة. فتح باب المقهى وانغلق مباشرة بينما ماري كانت تظهر جانبياً على العتبة. ومكثت برهة، الوقت الكافي لكي تغطي رأسها بمعطفها، على نحو ما تفعل فتيات المنطقة عندما تمطر.

كيف يمكن أن يكون لديه انطباع أنها شاحبة، بينما كانت بعيدة جداً ولم تكن منارة؟ ألقت نظرة جهة اليمين، ونظرة جهة اليسار. لم تره بالتأكيد، وقد اختبأ نصف اختباءه في تخشيبة الجمرك، لكنها اندفعت مع هذا، واجتازت الشارع راكضة، واجتازت الجسر الدوار وهناك أبطأت الخطى، غريزياً، لأن الجسر كان صاخباً.

وعلى بعد مترين أو ثلاثة أمتار، قالت:

-أأنت هنا يا مارسيل؟

ومباشرة بعد ذلك، دون غضب ولكن دون تساهل:

- هل جننت ، الآن؟

وكان غياب الإنارة يعطي الوجوه تجسيماً أكبر، لأن الناس ينظرون بعضهم إلى بعض عن قرب اكبر وقد يظن أن اللحم صار متألقاً. كانت ماري ترى بالتأكيد أن مارسيل ليس بهيئته العادية. وقطبت حاجبيها ولمت ثوبها على صدرها:

- ماالذي أصابك؟ أترغب أحياناً أن تفقدني عملي؟

- يا ماري...

- ماذا، ماري؟ قبل كل شيء لا أريد أن تأتي إلى المقهى، أسمعت ذلك؟

وتجرأ على التلفظ بقوله:

- وإن كنت لا أريد مطلقاً أن تعودي إلى هناك؟

- ليس لك ما تقوله؟ ماأقوم به لا يعنيك...

- ماري!...

- ماري! ماري! بعد أن تكرّر اسمي مئة مرة، تكون قد تقدمت كثيراً!

كان قريباً جداً منها ومع هذا لايتجرأ على ملامستها. لم يحدث شيء على وجه الإجمال، لكن بدا له مستحيلاً أن تعطيه الحق أيضاً بالشدّ بيده على يدها الصغيرة الخشنة، أو بتمرير شفتيه على رقبتها الدافئة.

وتمتم بخضوع:

- إني تعيس...

- إنك صبي، ذلك ما أنت عليه!
- تذكري، يا ماري...
- الأننا تعانقنا خمس أو ست مرات في الظلام تتصور...
- أحبك!

وخفض صوته، وقد تأثر بهذه الكلمة، وهزت كتفيها. وقالت وهي تنظر بقلق إلى المقهى:

- إنك غبي، هيا!
- قلت لي إنك تحبينني أيضاً...
- إذن، لأنني قلت ذلك مرة لصبي...

وتابع، وقد أخذ به الدوار:

- إنك تحبين فتى آخر، أليس كذلك؟ تحبين هذا الرجل...
- اسكت يا مارسيل... علي أن أعود إلى البيت، وإلا فسيبحثون عني... عليك أن تعدني بتركي وشأني...
- اعترفي أنك تحبينه...
- قلت لك إنك غبي...
- اعترفي...

كانت غريزتها تدفعها لعدم التأخر. وبدلاً من أن تكون قد ذهبت، فقد توجب عليها أن تبقى، لأنه سُمع صوت مزلاج حديدي ثقيل، كان مزلاج الجسر الذي بدؤوا بتشغيله. وانطلق صوت الصفارة القصير من آخر الحوض وكأنه نداء دابة في الليل. وانزلقت كتلة سوداء في المجرى المائي وعليها ضوء أخضر وآخر أحمر وكأنهما يلامسان منازل رصيف الميناء.

فقالت:

- إنك حاذق!

لاسيما أن الباب، قبالتهما، فتح! وخرج رجل من المقهى وكان بالامكان رؤية النقطة الحمراء لسيجارته. كان ذلك شاتلار، الذي تظاهر بطلب البرودة، لكن لعله كان يبحث بنظره عن ماري، ولعله رأى طرف المريلة البيضاء الذي خرج من المعطف!

اقتربت سفينة الصيد الجيبية وعاود مارسيل، بصوته المحزن، يقول:

- اسمعي، يا ماري...

- لا أريد أن أسمع شيئاً...

- لا أعرف ما أنا قادر على عمله... يجب أن تأتي معي ... وسنذهب كلانا معاً...

فسألته بهدوء، وقد نظرت إلى عينيه:

- إنك مهبول تماماً، نعم؟

وعندما مرّت السفينة بين الجدارين الحجريين ارتفعت، والآن فإنها ترتفع أكثر أيضاً في الحوض، واندفعت نحو المجرى المائي، حيث لم يكن يُرى سوى ضوءين خافتين. وعاد الجسر إلى مكانه، دون ضجة.

- ماري!...

وفي الجهة المقابلة ، مكث شاتلار بعض الوقت على العتبة ومن ثم دخل إلى المقهى وأغلق الباب. وأدركت ماري العتبة بدورها حتى أنها لم تستدر. وأمسكت بمقبض الباب. وصارت في الداخل، في الدخان والدفء والضجيج والحياة.

❖ ❖ ❖

وبما أنها جلبت معها شيئاً من البرودة بملابسها، فقد نظر إليها الرجال فأبدت عدم الاهتمام، وذهبت فعلقت معطفها على مشجب، وجهها بدون تعبير، بينما ازداد تنفسها قوة أكثر من العادة. وكان قلبها يخفق لأنها ركضت بضع لحظات.

أمسكت خرقة بيدها، ومسحت طاولة لم تكن متسخة أكثر من الطاولات الأخرى، وفي هذه الاثناء، كانت تبحث ببصرها عن شاتلار الذي لم يكن هناك. وكما لو أنه أراد الإجابة على هذه النظرة. فقد نادى، من القاعة المجاورة، وذلك بطرق قطعة نقد معدنية على صحن صغير، واستطاعت ماري أن تذهب إلى صاحب المقهى لتسأله:

- ألديك الحساب؟

خلف طاولة الشراب، وخلف الزجاجات على الرف، كانت هناك مرآة رديئة، رمادية ومشوّهة، ونظرت ماري إلى نفسها فيها لحظة، ورأت وجهها متطاولاً وبلا لون، ولها خصلة شعر تتدلّ على نحو مائل وياقتها البيضاء التي قلبت. ولم تقم بحركة لإصلاح ذلك حتى إنها نمّت عنها ابتسامة كتمتها:

- اثنان وأربعون فرنكاً وخمسون ظهراً... سبعة عشر فرنكاً مشروب... وستة وأربعون فرنكاً عشاء.

ولا يدخل صيادو الأسماك إلا نادراً إلى الغرفة الثانية المخصصة للضيوف الزائرين. وكان في وسطها مدفأة من الخزف الأزرق، وكان دورشن، الذي ينتعل جزمة، يتمدّد بساقيه أمام النار.

أما شاتلار، فكان واقفاً، وعلى شفتيه ابتسامة ليست صريحة تماماً. ولعل ماري، في هذه اللحظة، لم تكن صريحة

تماماً هي الأخرى؟ فقد أسرعت بعض الشيء بتقديم الحساب ووقفت بعيداً عن محدّثها.

- أليس لديك نقود تكميلية؟

وتركها تخرج لتقوم بالصرافة. وقد تعجبت من ذلك. لأنها ظنت أنه سيقول شيئاً ما. ودخلت من جديد في الدخان في القاعة المجاورة، حيث كان فيو الأب لا يزال ممسكاً بالمبصقة. عدّت القطع التكميلية، وعادت، وتظاهرت أنها ستذهب من جديد دون انتظار إكراميتها.

فقال شاتلار بهدوء وهو يمّد لها ورقة بعشرة فرنكات: خذي!

أخذتها، ودسّتها في جيب مريلتها وتجنبت إدارة رأسها، لأنه كان ينظر إلى عينيها وكانت تريد أن تظهر غير متأثرة بذلك.

- إذن، إنه هو ؟

ومهما كانت مسيطرة على نفسها لم تستطع الامتناع عن بدء ابتسامة لم تزلها إلا بعد بذل مجهود:

- من؟

- لا تعرفين ماأردت قوله، كلا؟

- كلا!

- هل تذهبين كثيراً لملاقاته خلف الجمرك؟

وأرادت أن يتمكن من رؤيتها مواجهة تماماً. ولم تخفض رأسها. وارتجفت خياشيمها، والتمعت عيناها.

- في كل مرة أستطيع بها ذلك.

- أليس هو الذي، قبل قليل، قام أبوه بضربه؟

ـ قد يكون ذلك صحيحاً... لم أنتبه للأمر...

كان غير مرتاح، ذلك كان واضحاً، وغير فخور بالقيام بحديث كهذا، ولابأن يكون هنا، وقد تأخر بسبب صبية وولد يعشقها. كان ناقماً على دورشن لأنه وجه إليه ببلاهة لمحة عين وكأنه قد جرى أمر مغاير تماماً.

ـ أيدوم هذا الأمر منذ مدة طويلة؟

ـ بما يكفي...

ـ وتحبينه؟

تظاهر بالضحك، واتخذ لهجة حماية، كما تتّخذ مع الأطفال.

ـ الحب الكبير؟... وهل ستتزوجان قريباً؟...

ـ لم نحدّد موعداً لذلك...

كان الأمر مدوّخاً. ولعل ماري كانت تعض على شفتيها. كان كل شيء يرتعش وكل شيء يرتجف داخلها ولم تكن تريد أن يظهر، واستجمعت شيئاً من شجاعتها كي تمتنع عن إغماض عينيها نصف إغماضة.

ـ مع هذا، إنه ليس صياد سمك... قلت لي، على ما أعتقد، إنك لن تتزوجي سوى صياد سمك...

لقد بلغ الخامسة والثلاثين من العمر! صار رجلاً ! وكان يتفاخر عادة! ويظن نفسه أقوى، وأشطر من الآخرين! كان يمتلك مقهى كبيراً في شربور، وصالة عرض سينما، وسفينة، وسيارة تنتظر على الباب..وكان هنا، كثير الاحمرار نوعاً ما، ولايعرف كيف يفعل ليسألها عن صبي! كان يستهزىء، ويقول بصوت مصطنع:

ـ ألن تتخذيني فتى شرف؟

واستغلت الفرصة لتنهي الموضوع.

ـ سبق وقلت لك أن لا تخاطبني بالمفرد...

ـ وهو؟ هل يخاطبك بلهجة الغائب؟

ـ ذلك لايعنيك!

واحمر جبينه. وبذل جهداً كي يكبح نفسه، وزمجر مع هذا قائلاً:

ـ هيا، ياصغيرتي...

ـ لست صغيرتك...

ـ على كل حال، تستطيعين على الأقل أن تكوني مهذبة مع الزبائن...

ـ لا يحتاج الزبائن الاهتمام بأمور الخادمات...

رفع دورشن عينيه ونظر إليهما على التوالي، وقد انذهل، وتساءل عما إن كانا كلاهما، سيهجمان واحدهما على الآخر وأن يتقاتلا وكأنهما كلب وهرّ. لكن ماري الحذرة اقتربت من باب المقهى. واستعادت صوتها الرتيب لتقول :

ـ ألست محتاجاً لأي شيء؟

تجنب شاتلار النظر إلى رفيقه وحزر أنه يتهكم عليه، وخرج وهو يدمدم:

إلى اللقاء غداً!... أو في يوم آخر... لا أعلم متى سوف آتي...

ـ ماذا سأفعل من أجل الرحوية؟

لم يجب ورفع كتفيه وارتدى معطفه. كان فيو الأب واقفاً، ثملاً بما فيه الكفاية ومنتعشاً لدرجة أن الناس تحلقوا حوله.

توقف شاتلار، دون سبب، لكي ينتقم، لتحدي شخص ما على الأقل. وانتظر، آملاً أن صاحب سفينة الصيد سيتفوه بكلام طائش، أو بحركة. وبما أن ذلك لم يحصل، فقد نظر إليه في عينيه، بكثير من الغطرسة حتى إن الجميع ظنوا أنه ستحصل مشاجرة. حتى ماري، التي استعدت منذ الآن لجمع القوارير من على طاولة الشراب.

لكن فيو كان يذوب، وخياله الثقيل يتأرجح. وأفكار ضبابية بما يكفي تمر في بؤبؤيه وانتهى به الأمر أن وقف ورفع يده بمستوى وجهه، وبمستوى قبعته، وبحركة مستحيية، وخجولة، فمن الممكن اعتبارها تحية.

اكتفى شاتلار بهذا الرضا لحب الذات، وثبّت نظرته على البحارة الواحد تلو الآخر وكأنه يودّ تسجيل الضربة، أو كأنه يرجوهم أن يسجلوا هذا التراجع. وشعر بهم مشدودين، ومنزعجين، لكنهم متحيرين كثيراً فلا يستطيعون التصرف.

فقال وهو يتجه إلى الباب:

- تحية إلى الجميع!...

كانت ماري على طريقه. فربت لها على فخدها عندما مرّ، وعن قصد، إذ كان يعلم أنه لن يكون لديها الوقت للردّ بما أنه في اللحظة التالية صار خارجاً وأعمل سيارته.

لم يكلف نفسه مشقة إغلاق الباب. وكان الزبون الأقرب هو الذي دفعه بقدمه، وبعنف، ليريح نفسه، هو أيضاً.

كان فيو يدمدم بين أسنانه، وهو يحدق إلى الأرضية الرمادية:

- ... لن يتفاخر دوماً مثل الآن..

سمع صوت المحرك، ثم صرير الانطلاق. كانت ماري هناك، وبيدها منشفة، وسطهم، كما لو أنها تشجعهم على معاودة الحياة التي توقفت للحظة.

كانت هناك سفينة صيد جيبية تنادي، من نهاية المرفأ، كي يفتح لها الجسر. كانت تلك السفينة عذراء الأمواج التي انطلقت لصيد محار سان جاك بالقرب من مدينة دييب.



لم يعرف الأمر إلا نتفاً. كان أحدهم يأتي بتفصيل، وأولئك يعرفون تفصيلاً آخر وكل ذلك عندما يُجمع طرفا إلى طرف لا يكوّن مع هذا سوى قصة مليئة بالفجوات، كما حصل قبل سنتين، عندما توقف بائع فحم انكليزي في بور، وحصلت مشاجرة، حوالي منتصف الليل. وفي هذه المرة، هدأ كل شيء في البداية. كان رجال الدرك قد حضروا وذهبوا. وفي الساعة الثانيةصباحاً سمعت ضجة في زقاق ووُجد بول، ميكانيكي السفينة إميلي، وقد أصابته ضربة زجاجة على رأسه.

في القضية الحالية، كانت الأحداث أقل خطورة، لكن الانطباع كان من نفس النوع، الانطباع الذي تتركه كل الأمور العنيفة وغير المتوقعة: انطباع مكدّر بقدرما لا نفهمه وأن المذنب الوحيد، إجمالاً هو القدر.

ظل الناس يمازحون فيو. ولعلهم أخطؤوا بعض الشيء. لقد اندفع كفاية على هذا النحو! لكن، منذ اللحظة التي غادر فيها شاتلار، استغل الناس ذلك ليتحدثوا عنه مثلما أرادوا فعله أمامه.

وكانوا يروون أنه، وبما أنه من شربور، فقد ظن كل شيء مسموحاً له؟ وأنه لم يشترِ السفينة جان إلا كي يزدريهم، وأنه بما أن خليلته كانت فتاةً من بور، فقد تخيل أنه يستطيع مداعبة الأخريات...

قالوا كثيراً وكثيراً حتى إنه في النهاية بلغ الأمر بالضبط أن الشيخ جول ما مات إلا من سوء أوديل، إذن بسبب شاتلار!

لم يكن دورشن يحب المشاجرات وذهب إلى سفينته ونام فيها وحيداً.

هل كان بإمكاننا أن نحزر أن كل ما كان يقال كان يمتزج على نحو غريب في ذهن فيو؟

خلال سنين وسنين، لم يكن يشرب إلا نادراً أكثر من غيره، بل بالأحرى أقل. ولم يلمه الناس على شيء. وعلى العكس من ذلك! كان رجلاً كما كان يقول هو بطيبة خاطر، يفعل مايستطيع ولايتردد في تقديم الخدمة.

- إنه فاضل...

تلك كانت الكلمة. كان يستحق أفضل من هذه المصائب التي نزلت به، ومنذ أن تم بيع سفينته، بعد أن كان يرى الناس، في المرفأ، مشغولين بتجديدها، تحوّلت فكرة القدر هذه لديه إلى فكرة ثابتة.

وفي هذا المساء كان يتشبث بقوله:

- ... أقول لك إن هذا لن يستمر على الدوام...

- ذلك أنه يصعب أكثر شدّ أذنيه من شدّ أذني ابنك...

كلمات مثل هذه، أثناء الشراب! ثم بعد أن يتخدّر الجميع، وقد سخنت أجسامهم تحت قمصانهم الكتّانية، يفترقون عند

العتبة. ويسمع صوت الخطى في اتجاهات مختلفة. هناك من يتوقفون للحظة من أجل رؤية المياه تسيل في المجرى المائي.

لم يكن فيو يسير باستقامة تامة. كان ينظر، عن بعد إلى نور لم يكن بالإمكان أن يأتي إلا من منزله وتساءل عمّن يمكن أن يظل ساهراً حتى هذه الساعة.

ولقول الحق، لم يعد يفكر بابنه، ولعله نسي أنه رماه خارج المقهى.

توقف أمام الباب الزجاجي وكان المصباح يتألق خلفه. ثم دخل. وعندها رأى شيئاً ما على الأرض، في المطبخ، شيئاً كان في الحقيقة ابنه المتمدّد بكل قامته.

لم يعترف لأحد أنه ظنه ميتاً في هذه اللحظة المحدّدة، وأنه عندما انحنى ليلمسه، كان متهيئاً للإجهاش بالبكاء.

إلا أن مارسيل لم يكن ميتاً، حتى إنه لم يكن جريحاً! تمدّد هناك لأنه عندما رجع إلى البيت شعر نفسه تعيساً جداً ويائساً لدرجة، حتى إنه لم يجد مكاناً آخر يتفق وحالته النفسية.

كان أكثر المحرومين بين الرجال! لم يكن بهي الطلعة، ولا قوياً مثل شاتلار. حتى شعره كان يمتنع على أن يُمشّط مثل شعر الآخرين!

ماتت أمه! وأخته بلهاء! ولم يكن أبوه يحبه بما أنه، حتى قبل قليل، أهانه أمام الناس وأمام ماري!

لم يكن أحد يحبّه، ولا يتمكن من أن يحبّه! كان كالكلب الأجرب لايرغب به أحد، كلب مريض يذهب للتمدّد على نحو مزرٍ في زاوية!

لأجل ذلك كان على الأرض: كي يشبع من تعاسته بالذات، ومن نحيبه، وليثمل يأساً!

وبما أنه كان قريباً جداً من المدفأة، وفيها بقايا نار، فقد كانت وجنتاه ساخنتين جداً وفمه، الذي امتص الدموع، كان يحتفظ بطعم مالح.

- ... ماذا تفعل هنا، حالياً؟

مع هذا لم يكن نائماً، بل كان مسترخياً. سمع والده يدخل دون أن يسمع صوته. كان يفش على الدوام لكي يزيد شعوره بالتعاسة ولم يكن مستاء من أن يجعل كائناً على الأقل يتأثر بما أن أخته لم تستفق على صوت نحيبه.

- ...إنك مجنون، أليس كذلك؟

وأدار نحو أبيه وجهاً محتقناً، وعينين لامعتين وفماً أحمر.

- ... هيا، ألا تريد أن تنهض؟

وفي هذه اللحظة، كان لا يزال زبونان أو ثلاثة في المقهى يهيمون في الشوارع. صعدت ماري إلى سقيفتها وبدأت بخلع ملابسها دون التفكير بمارسيل.

كانت مجبرة على خلع ملابسها في الظلمة لأنها، في الليلة السابقة سمعت صاحب الحانة في الممر ولعله ألصق عينه على ثقب المفتاح.

تمددت. كانت أغطية السرير مجمّدة، رطبة. وسمعت أبواباً تغلق، وبعيداً جداً، جلبة سلسلة.

كان سريرا فيو وابنه في الغرفة ذاتها، قرب المطبخ. ودمدم فيو، وكان متعباً، ووقف قرب الباب:

- نم!

أجاب مارسيل بتعاسة:

- لا أشعر بالنعاس...

- قلت لك أن تنام...

- لا أشعر بالنعاس...

ولعل فيو، في هذه اللحظة، تذكّر أن ابنه دخل المقهى. والله يعلم كيف أتته هذه الفكرة؛ وكان أن تمتم :

- الا تسكر، أحياناً؟

رفع الصبي كتفيه. وأصرّ الأب قائلاً:

- دعني أشم رائحة أنفاسك.

- كلا!

- ترى أنك ثمل!

- أنت الثمل...

- إيه... ماذا تقول؟...

ولعله كان مهدّداً. أو أنه شرع بحركة أوّلها الصبي على نحو مأساوي، لم يكن بالامكان معرفة ذلك، ولن يعرف الناس مطلقاً، لأنه فيما بعد، كانا كلاهما عاجزين عن ترتيب ذكرياتهما.

كان لدى أحدهما الولوع بالخمرة ولدى الآخر الولوع بالحب أو أنه النمو: كان المطبخ ضيقاً، بأثاثه وأشيائه العادية، وبعضها كان في مكانه منذ خمس عشرة سنة!

- ردّد أن...

أقول لك إنك ثمل... وفظ!... وحقير!... نعم حقير!...

كان يبكي وهو يصرخ. وتقلبت أخته في سريرها دون أن تستيقظ تماماً، لأنها لم تكن تسمع شيئاً.

- ياذا المخطة القذرة... سأعلمك، أنا...

❖ ❖ ❖

فتحت نافذة، ثم أخرى. لقد سمع الناس ضجة أشياء تتحطّم، في مطبخ عائلة فيو، ولم يعرفوا على وجه الدقة ماهي. كان الباب مفتوحاً يلقي على الرصيف مستطيلاً من الضياء

قال بعضهم إنه كانت هناك ضربات متبادلة؛ وادعى الآخرون أن فيو، عندما يغضب ينتقي بفطنة الأشياء التي يود تكسيرها كي تهدأ أعصابه.

وبعد ذلك سمع الناس:

- ... أنبهك، إن أنت تجاوزت هذا الباب، أنك لن تضع قدميك مطلقاً في هذا البيت... ولك أن تختار...

لم يرغب الناس التدخل. فلم يكن الأمر على هذه الدرجة من الخطورة. وتساءلوا ما إن كان الصبي سوف يخرج. وسمعوا ما يشبه النحيب، أو بالأحرى أنة مكتومة.

أفهمت تماماً... لو كانت أمك المسكينة في هذه الدنيا...



في الصباح، كان المطر يهطل، والنساء يقفن على عتبات بيوتهن، والأخريات كن يذهبن لشراء الأرزاق، وقد وضعن معاطفهن على رؤوسهن، على نحو ما فعلت ماري اليوم السابق.

كـان مطـراً لطيـفـاً، منعـشـاً، دقـيـقـاً لدرجـة أن الناس لايشعـرون بهطوله، لم تكن هـناك قطرات، لكن المنـظر والناس والأشياء كانت تحيط بها هالة من الرطوبة. كان يُظنّ أن الجوّ يتحرّك، بلطف، دون ضجة.

... وفي لحظة محدّدة، خرج الصبي، يركض... سار بضع خطوات على الرصـيف ومن ثم توقف... واعـتـقـدتُ أن أباه سيأتي إلى العتبة ليستدعيه... لم يكن مارسيل يريد الذهاب بالتأكيد... ولعله لم يخرج إلا لأنه خائف؟...

كان الناس يقولون هذه الأشياء بحزن، وهم ينظرون إلى السفن الثابتة في الحمأ، وحول كل منها، بقايا السمك.

- لم يشأ زوجي أن أنزل ... وبدأ المطر يهطل...

كـان المسنّون، رغم المطر، في أمـاكنهم، على الحـاجـز الحجري قرب الجسر الدوّار، وكـانوا هم أيضاً يتحدّثون عن فيو.

- ... أكان ثملاً لهذه الدرجة؟

- ... ليس بالامكان قول شيء...

- ... وأين من الممكن أن يذهب؟...

كان الصبي قد خرج، وتوقف على الرصيف، متأملاً أن أحداً سيأتي للبحث عنه مثلما تأمل قبل بضع ساعات، قرب مقهى البحرية، أن تأتي ماري لتطييب خاطره.

هل رأى أباه، من الباب المشقوق؟

وهل رأى الجيران بقمصانهم على النوافذ؟ هل كان يبكي؟ بعضهم يقول أن نعم. والجميع يؤكدون أنه كان شديد الشحوب كما لو أنّ المرء لا يكون حتماً شاحباً في العتمة!

وتساءلوا عما يفعله فيو، في الداخل.

كل ما كانوا يعرفونه أنه في إحدى اللحظات، دفع الباب، وكأنما برفسة، وأغلق بعنف.

ونادت بائعة الصحف، والتي تسكن بعد منزلين، بخجل:

- يامارسيل!... بسست... يامارسيل!...

سمع مارسيل بالتأكيد، لكنه لم يلتفت. وجعل يسير باتجاه أطراف المدينة، حيث تلتقي طرق بايو، وغرانكان، وأرّومانس.

قالت بائعة الصحف أيضاً لزوجها، ،وهي تكرّر ذلك الآن للجميع:

- يجب الذهاب لجلبه... من يعرف ما الذي بامكانه أن يقوم به؟... وغداً لن يفكرّ أبوه مطلقاً بالموضوع...

لكن الزوج أجاب:

- يجب عدم التدخل بشؤون الآخرين!

كانت الحياة ، في سوق السمك، تسير على نفس منوال الأيام الأخرى، لأن بائعي السمك بالجملة في أرياض المدينة لم يكن لديهم الوقت للاهتمام بابن فيو.

لكن سكان المدينة، هم، فقد كانوا وكأن على معدتهم ثقل.

لم يكن الأمر مأساوياً كثيراً مثل حادثة ضربِ الزجاجة على الرأس. ومع هذا! فمن يعرف؟ فإن البحّار لم تُقتلع سوى فروة رأسه وهذا لم يمنعه من أن يتزوج خلال العام!

هل كان بالامكان معرفة ما سيفعله صبي مثل مارسيل، الذي لم تكن أخته مثل الأخريات، وذلك كان حاصلاً حتماً بالوراثة العائلية؟

زاد حجاب المطر، دون أن تكون هناك قطرات مرئية. وكانت الشواطئ الكلسية، على جانبي المرفأ، كانت كالجدران العالية الرمادية، وفي الأعلى، كالمرض، كانت هناك خضرة مائلة إلى الاصفرار، وعلى بعد كبير، ناقوس مدبب. هدأت الريح. وانسحب البحر، وعلى سطحه بالكاد تموجات، لونها قاتم وأخضر مزرق.

كانت تفوح رائحة السمك، كما هي الحال دوماً في مثل هذه الساعة. كان هناك شفنين مطروح على الأرض، قرب العين، وعليه جروح يسيل منها الدم وجلده ممتقع مثل جلد الجثة. كانت الشاحنات الصغيرة مصفوفة بعضها خلف بعض حتى نهاية رصيف الميناء. والنساء ينتعلن القباقيب ويحملن سلال السمك الطازج.

- ... سوف يندم على مافعله... ليس لهم أقارب في المنطقة...

وبالرغم عنهم كانوا يبحثون عن الصبي في جميع الأماكن. وكانوا يقولون بعضهم لبعض إنه لم يكن بإمكانه الذهاب إلى مكان بعيد.

نهضت ماري منذ الساعة السادسة ، وقدمت الفطور لبائعات السمك الطازج وسمعتهن يتناقشن حول أسعار السمك، بينما كان أشخاص من المنطقة، على العتبة، لايتكلمون إلا عن ابن فيو.

كانت شاحبة، لكن كان ذلك لونها الاعتيادي. قدمت الخدمة لدورشن، دون أن تنبس بكلمة، وكان يأتي لتناول فطوره بعد أن يجعل العمال يعملون كورشة على ظهر السفينة جان.

توقفت مع هذا عن الخدمة، وبيدها صينيتها، عندما مرّ فيو، حوالي الساعة التاسعة، وهو ينتعل قبقابه وعلى رأسه قبعته البحرية، ويرتدي ملابس من يذهب إلى البحر.

رأى الناس بابه يفتح، قبل لحظات. لم يلق التحية على الجارات. وجعل يسير، وهو ينظر مباشرة أمامه. مشى إلى أن وصل إلى الجسر الدوّار. حيث كان الآخرون، جميع بحارة بور الذين لم يكونوا في البحر في هذه اللحظة.

قال لهم مثلما كان يفعل في باقي الأيام:

- تحية!...

كان شارياه يرتجفان. وهو ينظر بثبات إليهم الواحد بعد الآخر وكأنه يستعطفهم أن لا يقولوا له شيئاً، وأن لايتظاهروا بأنهم يعرفون شيئاً، وأن لاينظروا إليه على النحو الذي كانوا ينظرون به إليه.

ثم استدار، فجأة، ودخل إلى المقهى، ووضع مرفقه على طاولة الشراب التي مرت خلفها ماري. وقد نطق من أقصى حنجرته:

- ... قهوة...

لعله كان ينتظر، وهو يرفع بصره إليها، أن يجد الشفقة في عينيها، والتفهم، وقليلاً من التعاطف، شيئاً ما وكأنها من العائلة.

لكنها في نفس اللحظة أدارت رأسها نحو رصيف الميناء، حيث سمع توقف سيارة وتوقفت قليلاً وهي تقوم بخدمته. فقد فتح باب السيارة ومن ثم أغلق.

كان ذلك شاتلار الذي وصل، متقدماً ساعتين عن العادة، بمشية غير ملائمة لرجل لم ينم على نحو مريح.

- ٤ -

لم يرتفع الأمر إلى مرتبة المأساة، لكن الحادثة، على خستها، أثرت مع هذا على ذلك اليوم بطوله.

لم تكن هناك تجمعات وكان المفروض أن رجال الدرك لايعرفون شيئاً من الأمر. وعندما خرج فيو الأب من مقهى البحرية، تعمد أن يظل مستقيماً وذهب لشراء الخبز واللحم مثلما يفعل في كل مرة ينطلق فيها إلى البحر.

وفي الصباح، قال المسنّون أمام سماء نصف حداد:

ـ نعتقد أن الثلج سوف يتساقط...

وتأكد الأمر منذ الساعة العاشرة. إن القطرات الصغيرة المتجمّدة العالقة في الجو أصبحت دقيقة أكثر أيضاً، وأكثر كثافة. وفي مقدمة المرفأ، ظُنَّ أن هناك دخاناً آتياً من عرض البحر وتلاشت المكاسر في البداية، ومن ثم الشواطئ الكلسية، وبعد نصف ساعة اتخذ الناس جميعاً هذه المشية المتردّدة التي يتخذها الناس في الضباب.

خرجت الأخت تيريز مع هذا. وسمع عن بعد أكثر من المعتاد صرير الجسر، وشكلت النسوة المجتمعات من أجل الوداع مجموعة محيرّة وتوضّح أمر وحيد دفعة واحدة عند الاقتراب منهن، إنه وشاح، وشعر أحمر وطفل على ذراعين، ومريلة من القماش الأزرق...

كان فيو على ظهر المركب. أراد الذهاب، دون الإشارة إلى ابنه، لكنه لم يستطع الامتناع، في اللحظة التي خرجت فيها السفينة من المجرى المائي، أن ينظر باتجاه الشاطئ الكلسي.

بالنسبة لسكان بور-أن-بسن، لم يكن سوى صبي وضعه أبوه خارج المنزل في ليلة كان فيها ثملاً. كانوا يعرفون مارسيل قليلاً وبالضبط فقط لاموا أنفسهم فجأة لأنهم لم ينتبهوا إليه مطلقاً.

كانوا يتكلمون عنه دون التأكيد على ذلك. في الدكاكين، وعلى الأرصفة.

-.... هل فقط كان معه مال في جيبه؟

- وكيف يمكن أن يكون معه مال، علماً أنه لم يكن في البيت مطلقاً مال؟

وعندها كانوا يعملون مثل فيو: كانوا يرسلون نظرة سريعة باتجاه الشاطئ الكلسي. وهل علموا ما إن كان فتى قادراً على ارتكاب الحماقات؟ رأوه يكبر في الشوارع، مثل الآخرين، ولم يفكر أحد بالنظر إليه عن قرب أكبر.

لم يكن أحد مسؤولاً، بالطبع! ولم يتسببوا بالضرر! ولم يمنع ذلك أن الأمر يتعلق بطفل وأن الأشخاص البالغين، على نحو غير واضح، كانوا يشعرون بتوبيخ الضمير.



عندما وصل شاتلار، وهو لا يعرف بعد شيئاً، فقد صاح بماري، وكأنه يهددها:

ـ أنت، يجب أن أكلمك بعد قليل!

لم يتعكر مزاجها. رأت أنه لم ينم جيداً وكان مظهره يدل على أنه اتخذ قرارات. وبدلاً من أن يرتدي ملابس تصلح للمدينة فقد ارتدى ملابس تلائم صيد السمك والصيد العادي، وانتعل جزمة، ولم يضع ياقة مستعارة، وارتدى كنزة سيئة المنظر وقبعة ذهب لونها.

ألم يكن ذلك يعني أنه مل من عدم عمل شيء على سفينته وكان طيلة النهار يحوم حول طفلة في مقهى البحرية؟ سيعمل بيديه! وسيتسخ!

لم تستطع ماري الامتناع عن الابتسام بينما جلس إلى جانب دورشن الذي كان مشغولاً بتناول إفطاره. فهمت أن المعلم تكلم عن مارسيل، ثم تأثر شاتلار، مثل الآخرين.

والدليل، أنه طيلة النهار، لم يأتِ ذكر هذا الحديث العتين مع ماري. وفعل شاتلار حقاً ما وعد نفسه به. جُرّت السفينة جان إلى الحوض، في نهاية المرفأ تماماً. وبعد أن انسحب الماء، ترك السفينة على الناشف فوق البلاطات الكبيرة التي تغطيها الطحالب الخضراء. كانت خيالات العمال منهمكة بالعمل، وهم أقل طولا من العارضة الرئيسة، وعلى المدفأة كان قطران الفحم يغلي في طنجرة، ناشراً رائحة قطران رجولية.

لم يكن الضباب كثيفاً لدرجة منع العمل، ولا لكي تشغل صفارة المرفأ. ولم يكن الجو بارداً جداً أيضاً. كان جواً أصم،

كـامـداً، رطوبتـه كـريهـة ونفّـاذه، أحد هـذه الأجواء التي تجـعل الأيام لانهاية لها وتعطي الرغبة بالارتباط بالعمل الكريه الذي تم تأجيله منذ زمن طويل.

تلك كـانت حـالة شـاتلار، الذي عـمل وكـأنه عـامل. ومـثل الآخـرين، كـان يذهب ليـغطس فـرشـاته في قطران الفـحم وقـد ثبـتهـا على قـضيب طويل ، ثم يركض قبل أن يجـمـد السـائل، ويطلى بها جزءاً من سطح السفينة الخارجي.

وبالتـالي فإن سـطح السـفينة الخارجي هـذا، الذي لم يكن بوسع المـرء تسويد أكثر من عشـرة سـانتيـمتـرات مربعـة في كل مرة، اتخذ أبعاد جبل.

كـان النجـارون يثـبـتـون الأجـزاء بالـمسـامـيـر، علـى سطح السفينة. وأتم الميكانيكيون تضبيط المحرّك.

ثابر شاتلار طويلاً على عمله، ولكن بما أنه كان يجب طلي مثلث مزدوج أصغر في المقدمة، فقد فضل هـذا العمل وتخلى عن قطران الفحم لرفاقه.

كان على الغداء متسخاً وغير مرح. أكل وقد وضع مـرفقيه على الطاولة، ونظر إلى مـاري وكـأنه يجـعلهـا مسؤولة عن كل مـاحـدث، عن قـصـة مـارسـيل السـخـيـفـة، وعن الضـبـاب، وعن العمل الكريه الذي كان عليه أن يتمه حتى النهاية.

لن ينتهوا من العمل في ذلك اليوم، لأن المياه التي ارتفعت كثيراً أجـبـرتهم على ترك العـمل في سطح السـفينـة الخـارجي وصاروا يعملون على ظهر السفينة.

كان بحـارة آخـرون، في الحـوض، يعملون على زورق صـيـد. ومن حين لآخر يرمقون السفينة جان بنظرة ناقدة كي يروا مـا

كانوا يصلحونه فيها، ومفهوم، فإن هذا اللون الأصفر الذي انتخبه شاتلار لصدر السفينة، بدلاً من الأزرق السماوي الذي كان سابقاً، كان يصدمهم مثل أي شيء آخر يصدمهم، فالأمر كان يتعلق بغريب.

كان يوم منازعات وكانت لا مفر منها. وبّخ شاتلار المعلم، من أجل أمر غير ذي بال، فحرد هذا، وكان ذلك ثالثة الأثافي. وقلب نجار وعاء الدهان ووقع مصباح اللحام في الحمأ حيث توّجب إخراجه.

تلاقت نظرات ماري وشاتلار تماماً، لكن ليس تماماً على نحو المرات الأخرى. كانت ماري، هذا اليوم، هي التي بدا عليها أن تسأل:

- ماذا بك؟

وهو، عابس، يجيب بما يشبه:

- سترين أن الأمر لم ينته!... إنك لا تعرفينني بعد، ياصغيرتي!... ظننت أنك تستطيعين دوماً اللعب معي... انتظري فقط حتى أريك كيف أنا...

وكان يظهر عناداً كبيراً في التعبير عن هذه العواطف حتى أنها لم تستطع الامتناع عن الضحك لدى عودتها إلى المطبخ. أن تضحك وأن تذهب للنظر إلى صورتها في المرآة، وقد سرّت من نفسها!

دون الأخذ بالحسبان أنه كانت له طريقة مضحكة كي يجعل نفسه متسخاً! كان الآخرون أيضاً ملطخين بالدهان، والحمأ على جزماتهم حتى منتصفها. أما عليه، كانت البقع متوضعة على نحو يجعلها مضحكة.

بعد الظهر، سمعت ماري أناساً، على الرصيف، كانوا بالتأكيد يتحدثون عن مارسيل، بالرغم من أنهم لم يذكروا اسمه. فأتت إلى العتبة، ولم يبد على محياها شيء لكنهم كانوا قد أنهوا حديثهم واكتفت هي بأن تلقي نظرة باتجاه السفينة جان.

سمع شاتلار أيضاً ضجة. زعم البعض أن امرأة حكت لأخرى أنها صادفت الفتى قريباً جداً من المقبرة، أي عند مدخل المدينة.

وما فائدة الاهتمام بذلك؟

عندما حل الظلام، فكرّ شاتلار بالعودة إلى شربور دون المرور بمقهى البحرية، أو بالأحرى تظاهر أنه يفكر بذلك، لكنه كان يعلم أنه في نهاية الأمر سيدخل، بفظاظة، وهو يطرق بجزمته على الأرضية، وينظر إلى نفسه في المرآة ليتأكد من أنه متسخ بما فيه الكفاية.

- قدمي لي أنت، المشروب الفاتح للشهية!

كان يقول ذلك وكأنه أذية، وينظر إلى خيال ماري النحيل ينسل بين الطاولات ويغتاظ من رؤية وجهها كثير الهدوء، وأن يسمع صوتها تسأل على نحو طبيعي وكان نوعاً من التهكم:

- مع المياه الغازية؟

ولم يأتِ دورشن، الذي استمر في حرده، لتناول المشروب الفاتح للشهية معه، إلا أنه تبع العمال إلى مقهى آخر.كان أمراً سخيفاً مثل باقي الأمور. سخيفاً على نحو سؤال صاحب المقهى:

- أتعود إلى شربور رغم الضباب؟

كان سينام هنا، ربما؟ دفع، وركب في سيارته ، وأعمل المحرك. لم تأت ماري لرؤيته يذهب، ولم تقترب من الستائر. كان مصباحا السيارة يعطيان نوراً أصفر رديئاً وبالكاد يرسمان دائرتين غير واضحتين على حجارة الشارع المبللة . وفي هذه اللحظة بالذات، بدأت الصفارة تزمجر كما ظلت تزمجر طيلة الليل.

هل باستطاعة شاتلار أن يقول لماذا خرج من بور وسرعته أقل من ثلاثين كيلومتراً في الساعة؟ لم يكن يلاحظ ذلك. كان يصغي إلى صوت لم يعجبه في المحرك، وتساءل إن كان سيستمر النور معه حتى النهاية، والهموم الصغيرة التي أضيفت إلى أكوام الهموم جعلته حانقاً رغم وحدته. تجاوز طنبراً كان عائداً إلى المدينة. ثم كان يسير بجوار جدار فانقطع وصار يسير بين حقلين، عندما أوقف سيارته، غريزياً. فقد صدم شيء ما الزجاج الأمامي للسيارة. وخلال عشر الثانية، ظن أنها حصاة، لكنه تحقق الآن أنه كان في الزجاج ثقب يحيط به تصدعات بشكل نجمة وفهم أن رصاصة مرت من هناك.

دون تفكير، فتح باب السيارة. لم يكن مسلحاً، لم يفكر بذلك. كان فكّاه قاسيين، وقبضتاه مشدودتين، ونظر حوله، محاولاً أن يرى بوضوح شكلاً آدمياً في الثلج القطني الذي كان يحيط به.

وكان يكرّر بين أسنانه :

- يا للوساخة!...

وفجأة قفز، لأنه سمع، بالأحرى أحس أن شخصاً يتحرك

غير بعيد منه. وصادف كائناً حياً . وجعله الاندفاع يتدحرج على الأرض مع الرجل وكرّر أربع أو خمس مرات يااللوساخة وهو يضرب بكل قوته، بينما تحته بدأ أنين مكتوم.

لم يعدِ يفكر بالرصاصة، ولم يدرك أنه كان يضرب الذي هاجمه ولم تراوده فكرة أن يعرف من هو! كان ينتقم، بكل بساطة، من كل شيء ومن لاشيء، ليس فقط من هذا اليوم الذي ترك له طعماً لاحقاً ليس له طعم، لكن من الأيام السابقة، ومن مشهد اليوم السابق المثير للسخرية، عندما تمكنت صبية من إخراجه عن صوابه، ولقول كل شيء، سلبته كرامته كرجل.

وأمسكت يده، في لحظة ما يداً أخرى كانت ممسكة مسدساً، وعندها، ودون أن يفكر، جعل شاتلار يلويها، بكل قواه، كما لو أراد ثني قضيب حديدي.

سمع ـ وكان متأكداً أنه سمع ـ قرقعة، قرقعة عظام مزعجة، ثم أنيناً بالكاد مسموعاً، شيئاً مثل :

ـ أوه!...

ثم لاشيء. كان طرياً، فجأة. لم يكن تحته سوى شيء طري، وكذلك في يديه، وبين ذراعيه. توقف عن الضرب وعن السحق. وتراجع، ليستعيد أنفاسه وهو يتساءل إن كان لم يقتل خصمه.

كان شعوراً غريباً. لم تكنِ أنوار بور الأولى تبعد أكثر من كيلومتر واحد، لكنها لم تكن تُرى. فقط كان يسمع ضجيج الصفارة الأصم؛ ومرت سيارة، آتية من بايو، وأبطأت قرب سيارة شاتلار وكادت تصدمها، وصاح صوت بلهجة نورمندية واضحة:

- ألم تستطع أن تركن سيارتك؛ ياأبله؟

تركها تبتعد، وبحث عن أعواد ثقاب في جيبه. عندما أنارت الشعلة وجهاً باهتاً لمراهق، ولم يستغرب، مع أنه، أثناء العراك، لم يهتم بهوية من اعتدى عليه.

كان مارسيل! هذا ما وجده الصبي! ولم يفكر شاتلار بالتقاط المسدس الذي سقط في العشب، كان مسدساً كبيراً لجندي وصيف جلبه فيو من الحرب.

هزّ شاتلار الشاب، الذي كان بلا حراك، دون ردّة فعل. وكان يتمتم:

- هيا؟... قل شيئاً، بحق الله!... تحرك قليلاً...

لم يجنّ، لأنه كان يعلم، مثلاً، أنه لم يشدّ على رقبته ولا ضربه على صدره، لكنه كان متأثراً وأحس بشعور مؤلم عندما، أراد رفع ذراع، شعر بالذراع يلتوي إلى الجهة المعاكسة.

عندها، لم يتلكأ وحمل الجسم على كتفيه، ووضعه على مقعد السيارة، وعاد إلى مكانه وراء المقود.

ولو سئل عما يريد أن يفعله، لوجد صعوبة في الإجابة. سار. وتجاوز بايو. ومن حين لآخر، كان يمد يده نحو رفيقه. ويلمسه ويجد على الدوام شيئاً طرياً.

صار بعيداً، كان يسير منذ نصف ساعة تقريباً عندما ظن أنه سمع تنفساً أكثر انتظاماً، ثم أنة. فأمر قائلاً:

- ابق هادئاً، أنت الذي في الخلف!

كان يتحرك. ولم يرَ الجريح وكان يحسب أن عليه السير أيضاً لمدة عشرين دقيقة قبل أن يصل إلى شربور وسار بأقصى سرعة.

ـ إنك ذكي، إليس كذلك؟ هاأنك تقدمت الآن! وأنا، ماذا تريد أن أعمل؟...

كان يخاطب نفسه، بصوت عال.

ـ باستثناء أنك، لو لم تخطئني، لكنت في ورطة...

كل ذلك من أجل صاحبة مخطة حتى إنها غير ذكية!...

كان يئن، خلفه، بانتظام، على دفعات قليلة. أحياناً كانت هناك أنة أقوى من سواها، وأطول وأخيراً تمتم صوت قال:

ـ أشعر بالألم!

ـ إنك تستحق ذلك!... سيكون ذلك درساً لك... ماذا تريدني أذهب لأقول للشرطة، في الوقت الراهن؟ لم يكن ينتظر جواباً، وسار في المنعطفات بكل انتباه، وتجنب في آخر لحظة شاحنة لم يرَ أنوارها الخلفية.

وعندما توقف على رصيف الميناء، في شربور، في مواجهة المقهى، كان قد هدأ ونسي لباسه، وقطران الفحم الذي تلوث به، والدهان الأصفر.

ـ لا تتحرك، أيها الأحمق الصغير...

ركض حتى وصل إلى طاولة المشروب، ونادى المشرف عليها وأحد النادلين.

ـ هل أوديل هنا؟

ـ لعلها في الأعلى...

ـ ساعداني، أنتما الإثنان...

ولم ينتبه أحد إليهم. دخلوا من الباب الصغير وتسلقوا السلم غير المنار الذي يقود مباشرة إلى سكن شاتلار. وعندما فتح الباب، وجد أوديل جالسة أمام فتاة سمينة شعرها دسم

وقد بسطت أوراق اللعب على الطاولة.

فصاح قائلاً:

- ماذا تفعل هذه أيضاً، هنا؟

ودفع بقدمه باب غرفته. كان يكره النساء اللائي يبصرن بورق اللعب ولاسيما هذه السورية الملتمعة التي كانت تأتي لملاقاة أوديل كل اسبوع.

- إذهبي!... نعم!... ألا ترين أن لدينا شيئاً آخر نقوم بعمله؟

- هل جرى لك حادث، ياشاتلار؟ من هو؟

- اسكتي... اذهبي وأتيني بالطبيب بنوا!... قلت لك أن تذهبي لتأتي به لا أن تستعملي الهاتف أتريدين الذهاب، نعم؟... وأنتما الآخران، تستطيعان النزول... سآتي... وبالمناسبة، هل جلبوا الملصقات؟

لم يكن قد فعل سوى الانتقال من ترميدية إلى أخرى، لأن غرفته كانت قليلة الإضاءة وغلفت أوديل المصباح بحرير لونه برتقالي، نوع من وشاح منته في زواياه الأربع ببلوط خشبي.

- ارتفع، كي أسحب سترتك... ارتفع ، أيها الأحمق...

كان يأنف من هذه النظرة الخائفة التي كان الصبي يثبّتها عليه ويأنف أكثر من رؤية وجهه ملطخاً بالوحل والدم.

لأنه كان هناك دم. ولم يعرف شاتلار من أين سال. كان هذا الدم كافياً لتغيير ملامح مارسيل، وكان بالفعل يبدو عليه أنه ضحية، بعينيه الزائغتين اللتين يرى الناس مثلهما لدى من ينقذون من الكوارث.

- ألا تستطيع الكلام، كلا؟

ـ أشعر بألم...

ـ ذلك أفضل! سيلقنك هذا درساً...

ـ ماذا ستفعل؟

رفع كتفيه. أكثر الناس معتادون على الأطفال، لأن لهم إخوة، وأبناء عم، أو لأنهم أرباب عائلة. شاتلار، هو أيضاً، لم يعش مطلقاً في عائلة، ولم يعاشر مراهقين. كان ينظر إلى مارسيل دون أن يفهم، ويدمدم على الدوام:

ـ إن كنت تريد أن تكون حاذقاً، فأنت حاذق!... أهو هذا الذراع؟

وصرخ الآخر. ولقول الحق! كان ذراعه مكسوراً تماماً. ألم يتشبث به شاتلار وكأنه قضيب سجن؟ ألم يسمع العظم يسحق؟

وقال للطبيب الذي دخل وكان صديقاً:

ـ أهذا أنت!... أدخل... وأغلق الباب...

أتريدين المجيء أيضا، يا أوديل... لكن تكرّمي عليّ بأن تسكتي وأن لاتتخذي هذه الهيئة المأساوية.

تأثرت أوديل، وتمتمت قائلة:

ـ ماذا علي أن أفعل؟

ـ لا شيء، حالياً... تعال إلى هنا، يابنوا... إنه صبي قذر، حاول أن يخلق لي المشاكل... لايهم ذلك... كنت مجبراً على القفز فوقه، ولقول الحقيقة، لاأعرف تماماً ماذا كسرت له..وإن كان هذا فالأفضل ألا يعلم به أحد، ذلك على الأخص في صالحه... أتفهمني؟...

صاحت أوديل أخيراً بعد أن تعرفت على الجريح:

ـ إنه ابن فيو!

كانت الجملة تافهة. ومع هذا فقد تلفظت بها على نحو، بكلمة فيو هذه التي كانت تحتمل التأويل، حتى إن الطبيب نظر إلى المرأة الشابة بدهشة كبيرة وأن شاتلار لم يستطع الامتناع عن الضحك، ضحك ضحكة عصبية.

وتابع الكلام قائلاً:

ـ فيو الابن، هذا هو الأمر!... كنت أعلم تماماً أنك إن تكلمت، فلن يكون ذلك إلا لقول الحماقات...

وبعد ذلك أخذ يسير جيئة وذهاباً، مفضلاً أن لا يرى ما كان يجري. ومن حين لآخر، كان يفتح قليلاً ستائر النافذة المخملية ويرى النور البرتقالي للافتة.

كان الصبي يئن على الدوام، ويقول جملاً مجمجمة، بينما كانت أوديل تشجعه وتتفوه على نحو رتيب بأجزاء جمل لم تكن تعني شيئاً.

ومن أجل تمضية الوقت، رفع شاتلار سماعة التليفون، وطلب صالة السينما.

ـ ألو!... نعم، إنه أنا... كم كرسي تم ايجاره؟... ليس مهماً... نعم، سوف أنزل...

اقترب بنوا منه، وهو غير مشجع كثيراً. كسر مزدوج في الذراع... ذلك ليس جميلاً... إذا لم ترغب بإرساله إلى المستشفى، فالأفضل إن أعود ومعي طبيب جراح...

ـ أتعرف أحدهم؟

رفع بنوا كتفيه.

ـ إذن، افعل مايجب عمله... سأشرح لك هذا المساء... وستعطيك أوديل كل مايلزم...

ولم ينتبه إلى هندامه، إلا بعد أن نظر لنفسه في المرآة الكبيرة. وبدأ يخلع ثيابه، واغتسل بكثير من الماء وبلّل حتى منتصف الغرفة، حسب عادته.

اختار بّزة بلون أزرق بحري، وربطة عنق سوداء. وشك فيها لؤلؤة، بشكل آلي، ولم يغضب لأنه وجد نفسه نظيفاً وشعره أملس. وقال أخيراً بعد أن اقترب من السرير، حيث كان مارسيل، الهلع، يتحمل ردّة فعل انفعالاته.

- هل فهمت؟

أدار الصبي بصره وشعرت أوديل بالحاجة لأن تظهر على محياها إيماءة مسترحمة، ولعلها اعتقدت أن شاتلار سيعتريه الغضب مجدّداً.

- لا أشعر بأية رغبة للذهاب إلى الشرطة لأحكي قصتنا، علماً أنها ليست برّاقة تماماً... سنهيء ذراعك، وبعدها ستذهب لتشنق نفسك في مكان آخر...

تمتمت أوديل مشفقة، وهي التي لم تكن تقدر على السكوت :

- إنه يبكي...

- إذن! اتركيه يبكي...

وبعدها فضل الخروج، العودة إلى جو مقهاه المعتاد، حيث يجلس إلى كل طاولة تقريباً أناس يعرفهم.

يجب الاعتقاد أنه نهض بالقدم السيئة لأنه، هنا أيضاً حصلت له خيبة أمل. عادة، كان يشعر بشيء من اللذة «بسعادة جسدية تقريباً» عندما يشعر بنفسه نظيفاً، وقد حلق ذقنه منذ فترة قصيرة، لأنه ارتدى ملابس أنيقة وشدّ على الأيدي، وبأن

يجلس فترة قرب هذا أو ذاك. وأن يُحكّم في لعبة البيلوت، أو البوكر، وأن يتحدث مع كل واحد عن مشاكله الصغيرة.

كان المقهى، وكذلك السينما. ولاسيما يوم الجمعة، يوم المواظبين، مجاله، وكان يحكم فيه حكم السيّد، دون أن يعترض أحد على تفوقه.

كانت المرايا المعلقة في كل مكان تعكس ابتسامته المتعاطفة، وخياله المرح. كان لبعض الناس توصيات له، والآخرون يطلبون منه نصيحة، وكان هناك، على الدوام، قرب الباب، ثلاث أو أربع فتيات جميلات كان ينظر إلى تصرفاتهن بتسامح.

إلا أنه، في ذلك المساء بينما ظن أنه تخلص من جو النهار اللاصق كله، وجد نفسه دون نشاط، ودون حب للعمل ولاحيوية.ففحص جارور الصندوق على نحو آلي، ثم اهتم بملصقات السينما، ثم بنادل طرده في اليوم السابق وأتت زوجته ترجوه إعادته للعمل...

اهتم بكل شيء، مثل باقي الأيام، إلا أنه لم يكن يشعر برغبة في ذلك. ولم يندهش عندما شعر نفسه يدمدم قائلاً:

- إنها امرأة شريرة! ذلك ما هي عليه!...

وبقول آخر، كان يفكر بماري! ويتساءل إن كان يكرهها وإن كان، في النهاية لم يرغب في فتل معصمها هي.

منذ عشرة أيام، أي منذ اشترى السفينة جان، كان فخوراً. وهنا، في شربور، جعل الناس يعتقدون أنها فرصة فريدة، ومن أجل اثبات ذلك، أعلن سعراً يقل كثيراً عما دفعه ثمناً للسفينة.

وهذا الأمر وحده لم يكن من طبيعته. كان مخزياً أن يتيقن

المـرء من ذلك. وعندمـا كان يذهب إلى بور، كان يزعم أن في نيته أن يجهز هناك أسطولاً للصيد، وكان ذلك كذبة أيضاً.

ولمـاذا طلى صدر السـفينة باللون الأصفـر، وكان بالفعل أمـراً مثـيـراً للسـخـرية؟ ولمـاذا انتعل جـزمة وعمل مع العمـال بدهن قطران الفحم؟

لأنه، بكل بسـاطة كان مـزعـوجاً! ولأنـه، منذ بضـعـة أيام لم يكن هو نفسه، ولأنه كان يحوم ببـلاهة حول مـاري، وهو ما كاد يتسبب له برصاصة تصيبه.

كان قد جلس إلى طاولتين مختلفتين. والنادل، الذي يشبه رئيس الجمهورية،وكان فخوراً بذلك، سـأله متى يريد أن يأكل وأجـابه بإشـارة مـبـهـمـة. حـام قليـلاً حـول طاولات البليـار في الطـابق الأول. وكـان غـاضـبـاً من نفسـه، ومن جـمـيع النـاس ولاسيمـا من ماري. أمـا ماري فكانـت تسخـر منه لأنه كان حـرياً أن يُسخـر منه! كان يعاملها كفتاة شابّة! ولامس بالكاد خصـرها ثم احمر وجهه عندما نظرت إليه بقسوة! ومع ذلك كانت تسمح لكل صيادي سمك بور-أن-بسن بمداعبتها.

وبمـا أنه لم يكن باستطـاعته بشكل آخـر التخلص من هذا المـرض، فقـد كان مـن الواجب الانتـهـاءمنه ووضع مـاري لمـرة واحدة بين أربع عيـون وأن يثبت لهـا أن شـاتلار لا يتهـاون على الدوام.

ها هو الأمر! لقد قرر ذلك!

وأراحـه هـذا القـرار لـدرجـة أنه صـعـد إلى بيـتـه، ووجـد الطبيبين اللذين أنجزا عملهمـا، بينما كانت أوديل تقـوم بـدور الممرضة معهما.

كان مـارسيل شـاحباً كمـا لو أنه سـحب دمـه جـميعـاً من أوردته. والآن بعد أن اغتسل، كان يُرى أن قوس حاجبه مشقوق وأن شفته السفلى قد تورمت. وكانت نظرة بنوا تقول:

ـ أنت هناك! يبدو لي أنك لم تقم بهذا بيد رحيمة!

وبعد؟ لمـاذا يتضـايق شـاتلار؟ هل كان هو من هـاجم هذا الغبي؟ أهو الذي استعمل المسدس؟

وكان الآخر، أي الطبيب الجراح، ينظر إليه بقسـاوة أكبـر ولعله فكر أنه شديد الفظاظة.

سأل بنوا قائلاً:

ـ أين تريد وضعه؟

ـ لماذا؟

ـ ... لأنك لا تستطيع رميه في الخارج في الحالة التي هو عليها... تبلغ حرارته ٣٩ درجة... وعليه أن يلازم الفراش لعدة أيام أخرى و...

التـعـقيـدات على الدوام! هل تكهّن شـاتـلار بأن يسـتـقبل الجـرحى؟ وهل أصبح منزله مـستـشـفى؟ لم يبقَ مكان شـاغـر؟ حتى بما يكفيه هو، لأن جميع القاعات الممكنة كانت مخصصة للمقهى!

همست أوديل قائلة:

ـ غرفتي السابقة...

وبعد كل شيء!... لقد تمنى كثيراً أن لا يذكّروه بذلك، لكن أخيـراً... بالطبع أنه كـانت لهـا غـرفـة، تلك التي كـانت تشـغـلهـا عندمـا كانت خـادمـة، حجـرة سلّم بالأحـرى، كانوا يصلون إليهـا دون درابزين ولا انارة... ليضعوه فيها ولينته هذا الأمـر...

ـ نعم الأمر!

ـ ومن سيحمله؟

ـ أخرج مخططك! إنك لا تريد أن أحمله أنا بذاتي، كلا؟ إذن حاول أن تتدبر أمورك...

وقال للطبيبين:

ـ أتأتيانِ لتناول كأس؟

رفض الطبيب الجراح، لأنه كان مدعوّاً على العشاء ووعده شاتلار ببطاقات مجانية للسينما. وقدم المشروب المقبّل لبنوا، وكان رفيقاً له وقد ترك البحرية مؤخراً. وانتهى به السؤال إلى القول:

ـ هل هو فعلاً مشوّه الشكل؟

ـ برأيي، أن الذراع الأيسر لن يشفى تماماً... من هو؟

ـ لا أحد... إنه صبي... أتأكل قطعة معي؟

ـ لدي اجتماع الساعة الثامنة...

وكأنها صدفة! وبما أنها صدفة، ذهب جميع الروّاد. كانت هناك سفينة عابرة للاطلسي بعد ساعة. وكان هناك أيضاً، في المسرح، فرقة من باريس.

وأخيراً، كانت ساعة فراغ، بين المشروب فاتح الشهية وفترة المساء. كانت عاملة الصندوق تتعشى عند الصندوق، مثلما تفعل دائماً، بهيئتها المميّزة على نحو مغلوط لامرأة شاخت وأصابتها المصائب.

في ذلك اليوم، كرهها شاتلار وتساءل كيف استطاع تحملها خلال عامين.

وأتى رئيس الجمهورية تقليداً ليسأله:

- ماذا يجب أن أقدم لك؟
- هل ناديت عليك؟
- كلا، ولكن...
- إذن، انتظر أن أنادي عليك...

ونظر إلى الساعة، وتضايق لأن أوديل لم تنزل. وانتظر أيضاً عشر دقائق. وكان وحيداً تقريباً في المقهى، وأخيراً نادى على عاملة غرفة الثياب الصغيرة:

- اذهبي وقولي للسيدة أوديل أن تأتي...

كانت فتاة لم تبكِ بعد، ووجدت طبيعياً أن تضاجعه، وهي على العكس، كانت تنظر إليه بهيئة من يسأل متى ستبلغ به الرغبة أن يعاودها مرة ثانية!

وأتت لتعلن:

- نامت السيدة أوديل...
- إيه؟
- يبدو أنها متعبة جداً ومصابة بصداع نصفي...

كاد يجبرها على النهوض. ثم نظر إلى الصغيرة بثوبها الأسود وكانت تنتظر. وتساءل، إن كان في نهاية الأمر، لم يكن ذلك تغيير طعم مؤقتاً. كانت هنالك حيلة قديمة. كان يكفي أن يطلب منها أن تأتيه بشيء ما من مكتبه. كان هذا المكتب قريباً، في السينما. كان فيه ديوان ضيق بلون خبّازي مثل لون المقاعد الأمامية في الصالة، بالقرب من أكداس الأفلام في علبها من الحديد الأبيض.

- حسناً!...

ولعلها لم تسمع. بقيت هناك.

ـ هيا! قلت نعم الأمر...

كم كانوا في مقهى البحرية حول ماري؟ كانت تبدو مرحة ولطيفة، معهم ومع جميع من يرتدون القمصان من الكتان الخشن، الزرقاء أو بلون التبغ. كانت تنادي عليهم بأسمائهم. ولاحظت أنها تقدم إليهم الكؤوس ملآنة حتى حافتها، وكانت تترك دائرة مبلّلة على الطاولة.

قرب الباب، كانت فتاة صغيرة سمراء، لم تأتِ إلى شريور إلا منذ ثلاثة أسابيع، وقد أصرت على انتظار الزبون، بينما لم يكن قد أزف موعد مجيئه.

ذهب ليقول ذلك لها، ليقوم بعمل شيء ما.

ـ ... إنك تضيعين وقتك، ياصغيرتي!... حتى هذا المساء لن تفعلي شيئاً هنا... إنه ليس اليوم المطلوب...

كان على الطاولة كأس جعة لم ينقص. نظرت إلى صاحب المقهى ببعض الانقباض.

ـ من أين أنت؟

ـ من مدينة كمبر...

ـ تعالي غداً حوالي الساعة الرابعة... هناك مأدبة مجتمع، في الطابق الأول... وبعد ، ذلك لذيذ على الدوام...

ولعله لأنه كان هو نفسه طيب القلب، فقد شعر بحاجة إلى الانتقام وذهب ليقف أمام عاملة الصندوق.

ـ عليك أن تعلمي، أيتها السيدة بلان، أن المحار لايؤكل بالأصابع... وعلى كل، عندما يكون المرء عامل صندوق فإنه لا يأكل المحار...

ـ لكن ، ياسيدي...

- ليس هناك سيد ثابت...

سينهي الموضوع مع ماري مرة واحدة وسيجد راحته أخيراً!

ـ ٥ ـ

كان الأمر لايتبدل. فمنذ أن يضع شاتلار ساقاً خارج الفراش حتى يقول له صوت ناعس:

ـ ألن تذهب إلى بور؟

ولو أنهم دفعوا لها المال لذلك لما قالتها على نحو أفضل. ويحصل أن تضيف مغرية:

ـ يبدو أن الطقس سيكون جميلاً...

وحتى:

ـ لو لم يكن لدي هذا الجريح، لذهبت معك...

إلا أنه، منذ زمن طويل لم تعد هذه السذاجة تسلي شاتلار وبالكاد تكلف أن يدمدم:

ـ لن أذهب إلى بور، كلا!

وها إن أوديل تدبّرت أمرها كي تفهم، إن استطاعت.

أو بالأحرى، لم تكن بحاجة لذلك، بما أنها لم تحاول. وقد تمدّدت على جنبها حاضنة ركبتيها في السرير غير المرتب،

وقد خبأت عينها بالمخدّة، وقد استطاب جسمها الراحة، ومع هذا لم تكن راضيـة تمـامـاً، كـانت تتـابع شـاتلار بنظـرها، وهو يرتدي ملابسه، ولاحظت قائلة:

ـ أنت، لا أعرف ماذا بك، لكن أمراً ما ليس على مايرام...

وذهب. وبقيت أيضاً ربع ساعة، أو نصف ساعة؛ وعيناها مفتوحتان، لا تحرك يديها أو قدميها، وهي تفكرّ، وعندما تفكر على هذا النحو، كانت نظرتها تغوص في الخزانة الرمادية ذات المرآة حيث كانت تنعكس صورة جزء من النافذة.

وأخيراً تنهدت وخرجت من الفراش؛ وكانت الحركة الأولى التى قـامت بهـا، بعـد أن وقـفت على قـدمـيهـا، أن أمـسكت ثدياً بكل من يديها وحكّتهما من خـلال القـميص الذي كان قـمـاشـه يحكّ على نحو سارّ.

فيما مضى، كانت هناك خادمة تستطيع أن تثرثر أوديل مـعهـا لسـاعـات، إلى أن يتطلب الأمـر أن تنزل لسـبب مـا، لكن شاتلار طردها لأنها كانت تشرب.

لم ترتد أوديل مـلابسهـا . وكانت تؤخـر دومـا قـدر الإمكان هذه المهمة المزعجة. وتحتفظ بحرارتها الحيوانية، برائحتها في السرير، وبكل مداعبات الليل.

كـانت ترتدي مـبـذلاً، وفـتـحت السـتـائر ونظرت قليـلاً من النافذة، لكنه كان دومـاً نفس المشهد، شـاحنات صغيرة متوقفة قـرب رصـيـف المـيناء، وبضـعـة سـفن صـيـد، وأرض مـبلطة بالحجارة دسمة، وناس في عجلة من أمرهم.

بذلت جهـداً إضـافيـاً صـغيـراً وصـعدت الدرج الذي كـانت جدرانه مطلية بدهان زيتي، في الأسفل بلون مـائل للاحمـرار،

وفي الأعلى بلون أخضر رديء. صعدت إلى الأعلى. إلى حيث كانت تنام فيما مضى، عندما لم يكن شاتلار يهتم بها. ودخلت دون أن تقرع الباب وفي كل مرة كانت الرائحة تدهشها. لعله كان من الواجب أن تتعوّد عليها. وأن عليها أن تعلم أن لكل امرىء رائحته. كلا! ففي كل يوم كانت تقوم بنفس حركة الاندهاش. كان صحيحاً أن مارسيل، الذي لم يكن سوى صبي، كانت تفوح منه رائحة الرجال، أشدّ من رائحة شاتلار، ربما لأنه كان أصهب؟ وسألته وهي ترتب بحركة آلية اللحاف:

ـ كيف حالك؟ ألا تشعر بألم كبير؟ هل رأيت أحلاماً بشعة؟

ولقول الحق، كانت دوماً تشعر بالراحة في هذه الغرفة أكثر مما في الأماكن الأخرى. دون الأخذ بالاعتبار أن شاتلار كان عبثاً يظهر اللطف ، إلا أنه نادراً ما يفوت فرصة للتهكم عليها، أو لتعنيفها.

هنا، كانت تفعل ما تشاء.

ـ ماذا تحب أن تأكل ظهراً؟... قل لي!... تعرف تماماً أنه ليس عليك أن تتضايق معي...

وانتهى الأمر بالصبى أن سأل :

ـ ماذا قال؟

ولم يسأل:

ـ ماذا قالت؟

لم يكن مشغول الفكر بماري بل بشاتلار. إلا أن هذا لم يصعد بعد لرؤيته. بعد أن أتى به إلى منزله وجلب له طبيباً، فقد اهتمامه به.

ـ ماذا يقول؟

ـ لا يقول شيئاً! ماذا تريد أن يقول؟

كان كلام مارسيل مفهوماً. لم يكن يستطيع الشرح، بل كان كلامه مفهوماً.

ـ ماذا يفعل؟

ـ إنه لا يفعل شيئاً...

ـ هل ذهب إلى بور؟

ـ كلا... لعله تحت، أو في السينما...

ـ هل السينما كبيرة؟

ـ نعم... مثل جميع السينمات...

ـ ماذا يعرض فيها؟

ـ لم أرَ بعد برنامج هذا الأسبوع... فيلم أمريكي بالتأكيد...

وجلست على السرير. وإن هي لاحظت الرائحة فإنها لم تكرهها حتى إنها وجدتها مقبولة بعض الشيء. ثم، كان مارسيل شخصاً تستطيع أن تكون معه كما تشاء، وأن تتكلم دون تفكير، وأن تقول حماقات. كان أيضاً شخصاً بإمكانها أن تلامسه. وثقبت له الحبوب التي على وجهه. ورتبت له ذراعه التي كانت في ميزاب الكسر. وهي التي ساعدته على إبدال قميصه ولم يؤثر عليها أن رأته عارياً، بجلده الشاحب وعموده الفقري الذي كان بالامكان عدّ عظامه.

ـ ماذا يفعل، في المقهى؟

ـ وهل أعرف أنا؟ إنه يتكلم. إنه يهتم بكل شيء...

ولم تفهم أن الصبي لم يحدثها إلا عن شاتلار، دوماً عنه، إن كان يطرح إسئلة لم تخطر لها على بال، وعلى سبيل المثال:

ـ تنامان في السرير نفسه كلاكما؟

ـ بكل تأكيد...

ولم تنزعج زيادة أمامه. وهكذا، في هذا الصباح، بدأت تقلم أظافر قدميها. كانت جالسة أمام السرير، وقد انطوت على نفسها وانكشف فخذاها لدرجة أن أظهرا ظلاً مندّىً وحريرياً.

وقالت كي تحكي شيئاً:

ـ علي أن أذهب ذات يوم إلى بور كي أرى أختي. لا أعرف ماذا أصاب شاتلار... ففي الاسبوع الماضي، ذهب إليها كل يوم... إلا أنه فقط كان لاينام فيها... والآن وقد أصبحت السفينة جاهزة، فإنه لايرغب سماع حديث عنها...

كانت تبيّن الواقع، لكنها لم تكن مشغولة البال. تلك كانت قوتها. ومنذ اللحظة التي وجد فيها أربعة جدران، ومنور، وسرير، ومنذ اللحظة التي تمتعت بحرارة شخصها، وصلت إلى الاطمئنان ولم يكن يهمها ما يجري خارج زاويتها.

وسألت فجأة وقد رأت هيئة غريبة ترتسم على محيا مارسيل:

ـ إلى إي شيء تنظر؟

وتابعت نظرته وعرفت ما الذي ينظر إليه، وبدّلت مكان ساقها وقالت:

ـ أوه! ذلك هو...

ثم عادت تثرثر، دون استعجال، مثل الخياطات اللائي يعملن بالمياومة .

❖ ❖ ❖

واعترف المعلم على الهاتف على نحو يدعو للشفقة:

- ذلك أنا، مرة ثانية، يا ربّ العمل. ماذا علي أن أفعل؟

- أن تنتظر!

- ذلك أني...

- قلت لك أن تنتظر... عندما سأذهب إلى هناك سأرى و...

لكنه لم يكن يذهب! ولا يريد أن يذهب! كان يجد جميع الأعذار حتى أنه بدأ جرداً كاملاً للقبو أقلق كثيراً مستخدميه وأزعجه هو قبل غيره.

كان قادراً، على هذا النحو، أن يعيش أياماً وأياماً دون أن يذكر كلمة عما كان يقضّ مضجعه، ولعله، في النهاية، دون أن يفكر بذلك، على الأقل ما يدعونه تفكيراً، عن قصد، متأكداً من ذلك.

كان يعرف أن الناس في بور كانوا يتساءلون عما يعنى ذلك. كانت السفينة جان جاهزة. ولم يكن هناك سبب لعدم انطلاقها في البحر. وكان يكفي، في أسوأ حال، جمع طاقم من شربور. كان قد وبّخ الجميع من أجل الإسراع في العمل. والآن وقد انتهى الأمر...

وما من أحد، خلال هذه الفترة، سمح لنفسه بمعارضته. ومنذ الصباح الأول، انتشرت التعليمات:

- انتبهوا للمعلم!...

كان ذلك واضحاً! كان يذهب ليكتشف في الزوايا كأساً تم غسيله على نحو سيء أو خرقة مرميّة. وعاملة الصندوق التي كرهها دون سبب، لم تكن ترتاح ساعة من الزمن وانتهى بها الأمر أن تعيش الهزّات منذ الصباح حتى المساء.

كان يقول لعجوز من روّاد المقهى:

-أنت، ياصغيرتي، أود أن تذهبي وتقومي بالدعاية في مكان غير مقهاي... إنك بعض الشيء تلحظك العين أكثر مما يجب، وكما تفهمين... ليس بيتي مكاناً للانحراف!...

كان يجد مايقوله لكل واحد، بمن فيهم النادل الذي يشبه بالشكل رئيس الجمهورية. واكتشف شاتلار أن برأسه قشرة ونصحه بغسل رأسه بزيت الكاز!

لم يكن ذلك ليدوم، بالطبع، لكن النهاية، كما هي الحال دوماً، لم تكن متوقعة. كان ذلك ذات مساء وكان يأكل المحار وجهاً لوجه مع أوديل.

كان يأكل بأصابعه، وهذا ما رأته عاملة الصندوق من مكانها بسرور (مع أنها لم تستطع إبداء الملاحظة!).

وكانت القواقع تسقط بضجة في صحن خزفي.

ـ بالمناسبة...

رفعت أوديل رأسها. وتابع الأكل هو، كي يعطي أقل أهمية ممكنة لما كان سيقوله.

ـ ... يحسن بك أن تكلمي أختك بالهاتف لتطلبي منها المجيء لرؤيتك...

ـ ماري؟

كانت هناك ضجة المحار وضوضاء المقهى وصمت طويل. هل كانت أوديل تفكر؟ هل كانت ستجد أمراً ما؟

وتابع شاتلار قائلاً:

ـ نعم... إني أرغب برؤيتها...

والتفت إلى النادل قائلاً:

- ياإميل! اطلب لي الثلاثة في بور-أن-بسن على التلفون... وقلقت أوديل فسألت:

- ماذا علي أن أقول لها؟

- قولي لها إنك تريدين منها أن تأتي... لاأعرف، أنا!... وإن تلكأت، قولي لها إنك مريضة...

- هذا غير صحيح...

- وماذا يضرّ ذلك ؟

كان هناك المحار على الدوام. وشرب شاتلار المرق مستعملاً قوقعة.

- هل أحدثها عن مارسيل؟

- كلا...

وجاء النادل ليقول:

- لديك الثلاثة، على الخط.

كانت الأولى التي نهضت. تلكأ شاتلار لحظة ثم تبعها ودخل غرفة الهاتف لكنه لم يأخذ مباشرة السماعة الثانية.

- أهذا أنت يا ماري؟... نعم، أنا أوديل... ماذا تقولين؟... كلا، صحتي جيدة... هذا هو الموضوع... أخابرك لأقول لك...

وتوقفت، ونظرت إلي شاتلار الذي وجه لها إشارة آمرة.

- ... أنني أود أن تأتى لزيارتى... بلى!... لا أستطيع أن أشرح لك ذلك على التليفون... ألو!...

وانتهى الأمر بشاتلار أن أخذ السماعة بشيء من الخجل. وسمع صوت ماري تلفظ بهدوء:

ـ متى؟

ـ لا أعرف ، أنا ...

ـ وهمس قائلاً:

ـ غداً ...

ورددت أوديل طائعة:

ـ غـداً ... ليـست القطارات قليلة ... إذن، سـوف تأتين ... سيسر شاتلار كثيراً ...

نظر إليها بغضب شديد. طار صوابه، وغمغم وأخيراً علّق السماعة. عادا إلى مكانيهما وكأنهما يتخاصمان.

ـ لماذا غضبت لأنني قلت ....

ـ لأنـني لم أكلفك بهـذه المـهـمـة. هذا كل مـا في الأمـر! ياإميل!... أحضر الجبن ...

كان منزعـجـاً من نفسه ومنها، منزعـجـاً على الأخص من التأثير الذي أحدثه له سماع صوت ماري في الهاتف.

ـ ماذا بك؟

ـ ليس بي شيء

وبما أنها لم تكن تستطيع ترك فرصة ترتكب فيها حماقة، تابعت بثقة كبيرة:

ـ ذلك غريب ... في الواقع، إنك مهتم بأختي ...

ـ حقاً؟

ـ ليس أنني غيورة ... فأنا أعرف ماري ...

ـ وبعدها؟

ونظر إليـهـا على نحـو كان بالامكان الاعـتـقـاد أنه سيـقـوم بضربها.

- إذن، لاشيء... ماذا بك؟... في كل مرة نتحدث فيها عن ماري...

- أنت التي تتحدثين عنها، نعم؟

- والمعنى...

- إذن، اسكتي... إنك تزعجينني، في النهاية!...

ثم، بعد صمت:

- حتى إنك لم تسأليها أي قطار ستركب...



كل شيء تم استدراكه، بشيء من الوساخة إن قلنا كل شيء. لم يكن لشاتلار مجال للافتخار بنفسه، لكن كان الأمر سيّان بالنسبة له. نهض أبكر من عادته وحلق لحيته بعناية. حتى إنه، كما يفعل الشباب، بدل ملابسه التحتية والتفت إلى أوديل ليرى إن كانت تلاحظه.

وبينما كان لا يتحدث مطلقاً عن مارسيل، لم يكن الموضوع إلا عنه في هذا الصباح.

- ماذا يقول؟... كيف حاله؟ متى يستطيع الذهاب؟... ماذا ينوي عمله؟...

كانت حيلة، بالطبع! ولا يفيد ذلك إلا في التوصل لجملة أخرى، يقولها وهو يستدير، لأنه في هذه اللحظة، كان ينظر في المرآة ولم يعجبه وجهه:

- بعد قليل، يجب أن تكلميه... بلى!... لاحظي أنه غير وارد رميه في الخارج... دعيني أتكلم، لنرَ!... إذن سوف تسألينه بلباقة... وتحاولين معرفة مشاريعه...

ـ ولكن...

ـ أرجوكِ أن لاتقاطعيني... ستعملين ما أقوله لكِ... ستصعدين و...

بينما كان يتكلم على هذا النحو، كان يفكر بماري، بدقة هائلة.

بئس الأمر! كان الأمر على هذا النحو! ولو لم تتخذ موقفاً بمثل هذا الإزعاج، لكان عالج الأمر على نحو آخر.

ولاحظت أوديل قائلة:

ـ لعلي كنت استطعت الذهاب لجلب أختي من المحطة...

ـ لاداعي لذلك... ستجد الطريق بنفسها...

ـ ماذا على أن أقول لها؟

ـ لاشيء... إنك ترغبين الاجتماع بها...

ـ ألا زلت ترغب في أن تعمل هنا؟

ـ أنا؟ الأمر سيّان تماماً...

وفكر بموعد القطار. وكان يعرف أنه وصل، ولعل ماري خرجت من المحطة، وتوجهت نحو رصيف الميناء. كان يحسب كل شيء، مع تقريب الدقيقة. وقال بتهاون:

ـ سأنزل... إلى اللقاء بعد قليل... وإن جاءت ماري، سأجلبها...

دخل إلى المقهى، ووضع كرسياً في الترتيب، بحركة معلم.

هذا الصباح، صدفة، كانت الشمس مشرقة، شمس صفراء لكنها شمس مع هذا. وكان هناك أناس، ترى ظهورهم فقط، مصفوفين قرب رصيف الميناء وينظرون إلى سفينة صيد جيبية عادت إلى المرفأ.

كـان شـاتلار يذهب ويجيء. ويرمي عـاملة الصندوق بنظرات خفية، عارفاً أنها تحقد عليه وأنها محقة في ذلك.

ومزح معها قائلاً:

ـ أنت دائماً غاضبة؟

ـ لست غاضبة. إني عاملة لديك ولك الحق في أن توجه لي الملاحظات، ولكن...

ـ ولكن؟...

ـ لم أعد طفلة (تتحدث! لقد نبتت لحيتها!) وأفضل أن ، عندما يكون لك ما تقوله لي ، أن لا ...

فأكمل قائلاً:

ـ ... أن لا يقال لي أمام الجميع!

وعندها ، استدار، لأنه رأى في المرآة الباب يفتح. لأنها كانت هي! كانت ماري! لقد فكر كثيراً ومع هذا لم يتصور مطلقاً أنها ستكون هكذا!

كان ذلك مضحكاً، لأنها بالطبع لم تكن لتأتي إلى شريور بقبقابها، ومريلتها وشعرها المشعث!

ومع هذا! فقد بدّلها ذلك. كانت هيئتها هيئة شخص صغير غريب، وقد ارتدت تايور أبرز شكل جسمها، ومعها محفظة يدها التي وضعتها أمامها، بحركة ملائمة.

كان غريباً رؤيتها في زيارة، وقد تقدمت نحو النادل، لأنها لم تر شاتلار، وسألته بأدب:

ـ أليست الآنسة له فلم هنا؟

وكان بإمكانها طرح السؤال على الجميع دون نتيجة، على اعتبار أن شاتلار نفسه لم يكن يعلم أن أوديل تدعى له فلم!

فضحك. وتقدم. كان مسروراً جداً. ونسي الفخ السيء الذي هيأه.

ـ صباح الخير، ياماري!

ـ صباح الخير، أيها السيد...

ها إنها رمته مباشرة بكلمة "سيد".

كيف كان بإمكانها أن تناديه بالفعل؟ ليس شاتلار، ولا ريري، ولا بابن الحمى! إذن؟

ـ هل أختي هنا؟

ـ نعم، أيتها الطفلة الجميلة!... إنها في الأعلى وهي تنتظرك... يا إميل! اصحب الآنسة إلى الشقة...

كانت جميلة! ها هو الأمر! الآن، إنه متأكد أنها جميلة! وفجأة حصل له هذا الاحساس. لم تعد مطلقاً ماري التي عرفها في بور-أن-بسن. كانت سيدة صغيرة كثيرة النقاء، تعرف ما ترغب به وكان لها مظهر سيدة تقوم بزيارة بينما كانت تتبع النادل.

لم تكن بالضبط تنتظر أن يدع شاتلار جملته تسقط على هذا النحو! أقال فعلاً؟ اصحب هذه الآنسة إلى الشقة...

ها! ها! وكما لو أنها لا تمثل له أدنى أهمية في العالم! ما الذي كان مشتركاً بينه وبينها؟ أتت لمقابلة أختها، أليس صحيحاً؟ فليتدبرا أمرهما كلاهما!

كانت عيناه تضحكان. وكان يشعر برغبة بالقيام بخدع وعاد إلى طاولة المشروب.

ـ ماذا كنا نقول، ياسيدة بلان الطيبة؟

ـ هل أنت متمسك بذلك؟

ـ وكيف إذن؟

ـ قلت إنني لم أعد طفلة وأنني أرغب ، مستقبلاً...

وكان مسروراً. ووصول ماري إلى هنا، إلى المقهى الفارغ، كان أمراً خارقاً! كان ينظر إلى الباب ويتخيل رؤيته مفتوحاً، ثم يرى الخيال الصغير للفتاة الشابة. ذلك ما كان في الأمر! للمرة الأولى، بدت له كفتاة شابة!

قسماً! ألم تكن إحداهن؟

ـ إني مصغ إليك، أيتها السيدة بلان...

ـ لا يظن المرء أنك تفعل...

مرّ خلف طاولة المشروب وتساءل عما سيشرب، شيئاً يترك له طعماً طيباً في فمه.أخذ قارورة ثم أخرى وتمضمض في نهاية الأمر بمشروب البورتو المعتق.

كان من الواجب الانتظار قليلاً أيضاً، وإلا فلن يبدو الأمر طبيعياً. ذهب واستقر على الرصيف، لكي يبرد. كان الجو لذيذاً. وكانت امرأة تدفع عربة مليئة بسمك الغُبر وتترك وراءها ثلماً مبللاً.

وفي الأعلى، لعلهما كانتا تحكيان إحداهما للأخرى قصصهما الصغيرة. وعلى كل حال، فقد جاءت ماري! ومع هذا لعلها شكّت بأنه هو الذي جعل أوديل تجري المخابرة. وفي هذه الحالة، فإن الطريقة التي كان يفتخر بها أدهشتها.

ـ ستنزل الخيمة قليلاً، ياإميل... وإذا سأل أحد عني، فأنا لست هنا بالنسبة لأي كان... آه! كدت أنسى... اطلب أن يوضع فروجان فتيان تماماً في الطنجرة...

وصعد على الدرج، وكانت حدقتاه تضحكان على الدوام،

إلا أنه منذ ذلك الحين بدأ يبذل جهداً. وأجبر على القول بصوت خفيض:

- بئس الأمر بالنسبة لها!...

ومكث برهة خلف الباب، يصغي ، وقالت أوديل كلمات مثل:

- ... ليس لديه أذية بقرش واحد...

لكن لعل الحديث لم يكن عنه. كان من الممكن أن يتعلق الأمر بمارسيل.

كانت أوديل ترتدي قميصاً، وقدماها عاريتان. وفتحت خزانتها لتري أختها ملابسها. أما ماري، فقد احتفظت بالتايور، لكنها خلعت قبعتها ولعلها كانت تشد على رأسها، لأنه كان يظهر خط أحمر على جبينها.

قالت أوديل، وهي مسرورة جداً:

- أترى، لقد أتت...

- أرى...

لم تكن الاضاءة مطلقاً جيدة في الغرفة، لأن النافذة الوحيدة، المطلة على رصيف الميناء، تحيط بها ستائر ثقيلة من القطيفة؛ علاوة، على أن ورق الجدران كان معتماً وكان على الأرض سجادة قديمة بلون أحمر.

- انتبهي لي، ياأوديل...

- ماذا؟

ونظر إليها لكي يجعلها تفهم:

" على الأخص، لاتطرحي أسئلة بلا طائل!"

وقال:

ـ أود أن تصعدي من أجل ماحدثتك عنه صباح اليوم...
ومنعتها نظرته من الاحتجاج.
ـ اذهبي بسـرعة!... وكلميه... إني بحاجة لأكون متأكداً لأني، بعد قليل، سأكلم شخصاً عنه...
ـ حسناً...
لمت مئزرها، وأمسكت خفاً كان مبعثراً، وقالت لأختها:
ـ سأنزل مباشرة...
وظلت متحيرة لحظة، مع هذا، بينما كانت تسير نحو الباب، وكأنما طرأت على بالها فكرة. لكن ذلك مرّ بسرعة وكل ما قالته كان:
ـ حاولا أن لا تتخاصما!...
لم تتحرك ماري. كانت واقفة بين السرير والنافذة، على بعد متر من الخزانة ذات المرايا التي كانت تعكس صورتها من ظهرها. كان شاتلار يراقبها، على دفعات قصيرة، ثم، عندما صارت أوديل على الدرج، سار نحو الباب، ببطء، ورصانة، وكأنه يقوم بعمل هام، بعد تفكير عميق، وأدار المفتاح في القفل، ووضع المفتاح في جيبه، وأخيراً رفع رأسه ونظر إلى ماري في عينيها. وقال:
ـ هاهو الأمر!
فكّر بذلك كثيراً. ومع هذا لم يحزر مطلقاً ما الذي ستفعله. كان يتوقع ردّة فعل فظة بعض الشيء، ربّما صرخة، أو سباب، أو ضربات؟
وكان يتخيلها تتخبط بين ذراعيه وتخدش وكأنها حيوان فتي.

إلا أنهالم تتحرك. ولم تنحّ ، عينيها. وكان المرء يظن، لأنها ظلت ساكنه تماماً، أنها لم تخف. كان ذلك دون شك صدفة: كانت لاتزال تمسك بيدها محفظتها الجلدية السوداء، وقفلها من المعدن، وكانت تعطيها هيئة من يقوم بزيارة.

ـ أتفهمين الآن؟

أما هو، فقد نظر إليها وكأنه يكرهها، بقسوة، وبحقد، وبطريقة خبيثة في تقريب فكه السفلي إلى الأمام. وكأنه سيقوم بانتقام مخيف من هذه الصبية المسمّرة في مكانها.

ـ تعالي إلى هنا...

كلا، لم تكن لتأتي لوحدها! كان عليه هو أن يتقدم! وقد قام بذلك، على نحو أخرق، لأن ذلك كان أصعب بكثير مما ظن. لو أنها غضبت مع هذا أو لو أنها بكت! لو أنها تحركت! لكن كلا: ظلت هناك، ولم يكن وجهها يعبّر عن شيء، لا عن الدهشة، ولا الغضب، ليس سوى فضول مبهم، كما لو أنه في كل ذلك لم تكن هي المعنية.

ـ كنت تتوقعين ذلك بعض الشيء؟

وبعد الحركات الأولى، تنطلق الأمور لوحدها. ماكان يلزم، إنما كان إلغاء كل مسافة بينهما، أن يلمسها، وأن يمسك بها. لكن لايتصوّر المرء أحياناً كم، في إحدى اللحظات، يصبح مزعجاً رفع الذراع، أو وضع اليد على كتف يرتدي صرجاً أسود!

وفعل ذلك، مع هذا. ولم يختلج هذا الكتف ولم يتهرب زيادة عن ذلك فقال:

ـ أترين، ياصغيرتي ماري، منذ زمن طويل وأنا أفكر بذلك...

وهي، بصوت طبيعي لدرجة أنه مذهل:

ـ لماذا أغلقت الباب؟

وماذا كان باستطاعته أن يفعل سوى أن يضحك، وأن يقترب أكثر، وأن يحيط كتفيها بذراعه؟

ـ ألم تلاحظي هذا؟

لقد تصوّر أفكاراً. كان الأمر أسهل بكثير مما ظن! وفي الواقع، كانت قد استسلمت ولعلها ليست المرة الأولى التى يحصل لها الأمر؟

لم يكن يحب أن يبدو ساذجاً. وتمتم قائلاً:

ـ هل هذا يخيفك؟

ـ ماذا؟

ـ لاتفهمين، كلا؟

وبدرت عنها حركة مضحكة. وأشارت إلى السرير المشعث، حيث كانت لا تزال قطع بياض لأوديل وقد لفت على شكل كرة. وقالت:

ـ عن هذا، كنت تتكلم؟

ثم، بلطف، انسلّت. لم يكن يعرف ما الذي سيعمله . كان متوقعاً كل شيء، عدا أن يراها تتوجه على وجه التحديد نحو السرير، أن تجلس على حافته وتقول:

ـ هاهو الأمر!...

ها هو ماذا؟ لقد قبلت؟ لقد كانت مسرورة؟ لقد خضعت؟ هاهو ماذا؟ أكانت تسخر منه أم أنها كانت تحتقره؟

وأضافت بابتسامة:

ـ أنت الأقوى، أليس كذلك؟ وأفترض أنك اتخذت كل احتياطاتك...

ـ اسمعي ، ياماري...

ـ كلا!

ـ كلا، ماذا؟

ـ إني لاأصغي... ولست بحاجة لمعرفة شيء... افعل ماتريد، بما أنني لا أستطيع منعك من ذلك، لكن لاتقدم التفسيرات...

لم تبكِ. حتى إنها لم تظهر تكشيرة. كان الأمر دقيقاً حتى إنه لم يكن متأكداً من حواسه. لاشيء! انتفاخ غير ظاهر لشفتها السفلى، ثم حركة من رأسها، الذي أدارته نحو الجدار بحيث أنه ، وللمرة الأولى، لاحظ أن عنقها طويل، وشديد البياض، وفيه عرق أزرق.

ـ اسمعي ياماري...

لقد قال اسمعي! ولم يعرف إلى أين آلت الأمور. كان حانقاً على نفسه. وعندها، ومن أجل الانتهاء من موقف شاق جداً، هجم، أي أنه سار نحوها، وجلس، هو أيضاً، على السرير، وأمسك بها كيفما اتفق، وشدّها إليه. لم تقاوم. كانت وجنتها باردة. وقبلها كيفما اتفق، على شعر صدغيها، على خدّها، على نقرتها، وقال كيفما استطاع:

ـ ألا تفهمين أنني لم أعد أستطيع، وأنني أحبك، وأنني...

لكنها لم تكن تتحرك! ولاتعيش! ولاتتيبس! كان أمراً خارقا، لايحتمل! ظن أن الأمر قد يتغير إذا وصل إلى فمها، إلا أنها أدارت رأسها قليلاً كما لو أن فمه أثار فيها القرف.

ـ ماري، يجب أن...

أن ماذا؟ وعلاوة عن ذلك، فقد احتفظ برباطة جأشه،

يرى النافذة والشمس خلف مرآة الخزانة ذات المرايا حيث قبل قليل كانت تعكس خيال ظهر ماري؛ وسمع الضوضاء التي يحدثها إميل وهو يرتب الطاولات.

وراودته نفسه، مرّات عديدة، التصرف على نحو فظ، لينهي الموضوع، وإن كان سيندم فيما بعد. ألم يكن ذلك أفضل من لاشيء؟

وضع يده على ركبة ماري، وكانت ترتدي جوارب سوداء، ولامس الجلد، أعلى بقليل. ثم في نفس اللحظة، رأى الوجه يستدير نحوه ورأى في ملامحها إمارات استسلام حزين، لعلها خيبة أمل، أو بداية اشمئزاز؟ كلا! حتى ولا ذلك.

قالت كلمة، كلمة واحدة.

- وبعدها؟

كان ذلك كل مافي الأمر! وفهم مع هذا:

" إذن، هذا ماترغب بالحصول عليه؟..."

أهذا كل ما كان يثقل قلبك؟...

أمن أجل هذا ركضت كثيراً، وأتيت كل يوم، كالمجنون، إلى بور-أن-بسن، ثم لم تعد تتجرأ على المجيء، ثم أخيراً دفعت أختي لتخابرني؟...

لم تنزل طرف ثوبها . لم تكن تتجشم ذلك! ماذا كان في الأمر أن يرى جزءاً صغيراً من فخذها؟

تدلّى ذراعا شاتلار على طول جسمه، لم يعد يستطيع. كان كالمشلول. وشعر بحنجرته تتكمش. لم يكن يرغب أن يبكي. وإلا لكان في ذلك كثير من الحماقة، وكثير من الإذلال!

لم يكن ذلك ليستمر. كانا هناك، جالسين على طرف

السرير، واحدهما بجانب الآخر، دون أن ينظرا أحدهما إلى الآخر. كانت ماري هي، الأولى، التي بدرت عنها تنهدة. ثم ،بشيء من الخجل، التفتت مجدداً نحو شاتلار وقالت بصوتها الرتيب الذي كان، في هذا اليوم، يحدث تأثيراً غريباً:

ـ انتهى الأمر!...

نهض مسرعاً. وصرخ

ـ هذا العمل أحمق، نعم!...

وسار بخطوات واسعة باتجاه الباب. والأكثر حمقاً من ذلك أنه لم يجد المفتاح، وفتش بعصبية جيوبه وبنهاية الأمر سقط المفتاح من منديله.

كان يكرر دون أن ينتبه لما يقول، لكن باقتناع رهيب:

ـ أحمق!... أحمق!... أحمق تماماً!...

فتح الباب. ولم يرغب بأن يستدير. ولم يكن ليفعل ذلك من أجل أي شيء في العالم.

وأمسك بالسلم الصغير البني والأخضر. وصعد الدرجات أربعاً فأربع وهو يكرّر قول:

ـ ... أحمق...

وكما يحصل للأطفال، كان يلفظ الكلمات التي سيقولها:

ـ اهتمي بشقيقتك... هيا! اهتمي بماري...

وصل إلى الطابق العلوي، وسار في ممر، ودفع الباب. وعندها، كان الأمر أكثر حماقة من كل شيء،مما جرى في الأسفل، ،من الذي سيجري مطلقاً في حياته.

كان أحمق وسخيف!

أوديل و مارسيل...

كانا في وضع يدعو للهزء حتى أنه كان من الأفضل الضحك، ولم يكن هناك سوى فعل ذلك. بضحكة مزعجة تسبب الألم. وما من أحد إلا وكان سكت. عدا أوديل! شعرت أوديل بحاجة للتكلم، وقد التفت بأغطية السرير، في قميص مارسيل، وفي ارتباكها المضحك. وقالت:

- سوف أشرح لك...

هل كانت الأخرى، في الأسفل، لا تزال جالسة على طرف السرير؟ كان يضحك! وكان ذلك يؤلم حنجرته! ويشعر بالعطش! وفي نفس الوقت شعر بحاجة ملحة للجلوس، لأن ركبتيه كانتا ترتجفان.

وبدأ يقول وقد أشار إلى الباب:

- أختك...

لم يكن بامكانه قول جمل طويلة. وما كان عليها إلا أن تفهم! ولم يكن عليها إلا الذهاب للاجتماع بماري! إلا أنها كانت تصرخ قائلة:

- ماذا؟... ماالذي حصل؟...

لم يحصل شيء، بالتأكيد، بما أنه، هو وماري، أخفق الأمر بينهما! ذلك ما حاول إفهامها إياه. وكرّر قائلاً:

- ... أخفق الأمر...

ضحك دون أن يضحك، كان الأمر عصبياً. لم يكن عليها إلا أن تنزل. وأومأ لها بذلك. وانتهى به الأمر أن صرخ:

- لكن هيا اذهبي!

لأنهم لم يكونوا ثلاثتهم يستطيعون البقاء على هذا النحو!

- اذهبي!...

توقفت في الطريق، وفتحت فمها. إلا أنها مع هذا لم تقل مثلما كانت تشعر برغبة في ذلك:

- عدني على الأقل أنك لن تعمل له شيئاً...

أن يعمل شيئاً لمارسيل!

من الجيد أن يتكلف المرء النهوض من فراشه للمرة الأولى منذ أسابيع وأن يجد الشمس مشرقة! وأن يكون قد بدّل ملابسه التحتية وكأنه طالب مدرسة...

- ٦ -

كان الباب الذي بقي مفتوحاً يظهر السرير المشوّش ومرآة الخزانة المستطيلة الشكل.

كانت ماري واقفة، بتايورها الأسود، وقد وضعت قبعتها على رأسها، وأمسكت بمحفظتها الصغيرة السوداء بيدها وكانت تمسّد أنفها بمنديلها، لاكما يفعل شخص يبكي أو كان قد بكى، بل كشخص مزكوم. وكانت قد زكمت بالفعل صباحاً في القطار غير المدفأ. على الأقل في عربات الدرجة الثالثة.

نزلت أوديل، بوجهها الكارثي وملابسها المبتذلة. ومرت، لاهثة، أمام شقيقتها، وتحسرت وهي تندفع نحو الخزانة:

- ياإلهي!... ياإلهي!...

ثم خلعت قميص نومها الذي احتفظت به. وبدت عارية تماماً شاحبة وصهباء في الترميدية. كان ذلك غير منتظر. ولاحظت ماري أن أختها سمنت وأن صدرها، الذي حسدتها

دوماً عليه، صار أسمن من السابق، بحلمتين صغيرتين تماماً، بلون زهري ذائب.

لبست أوديل في فوضى لاهثة. وقالت، دون تفكير:

- ما الذي فعله لك أنت؟

ثم دون أن تنتظر جواباً:

- اصغي إلى الممر... وأعلميني إذا نزل...

ورغم أنها كانت على عجلة من أمرها فقد وضعت زنّاراً، ولبست جوارب، ورافعة للنهدين. وكانت ماري تسير ذهاباً واياباً في الممر، وتقف أحياناً في إطار الباب.

- الا تسمعين شيئاً؟

- كلا...

ثم إن أوديل، التي أصبحت جاهزة أخيراً، فتشت أيضاً عن شيء ما، دون أن تعرف ما هو، ثم قررت الذهاب.

- تعالي... سأحكي لك في الخارج... إني خائفة كثيراً...

نظرتا إلى الأعلى ثم نزلتا كلتاهما الدرج، وظهرتا في صالة المقهى حيث نظر إليهما الناس وهما تمرّان.

كان المطر وكأنه سيهطل. فقد غطت الغيوم السماء. هبت نسمات باردة على الرصيف. كانت أوديل تلتفت من حين لآخر وهي تسير بمحاذاة الأرصفة، وتجرّ أختها.

- لايمكنك أن تتصوري... إنه فاجأنا، أنا ومارسيل...

كانت ماري تشعر بالأحرى برغبة في الضحك لكنها استطاعت القول بجدّية:

- ما الذي أصابك؟

- لا أعرف... إني أتساءل كيف حصل ذلك...

ودفعهما المارة، لأنهما سارتا في طريق مزدحم، أرصفته ضيقة. وكانت أوديل تتحرك كثيراً، لتصل إلى نفس النتيجة مثل أختها التي كانت تسير دون عجلة من أمرها. وقالت ماري بقناعة:

ـ إنكِ كنت دوماً غبية، يافتاتي!

ـ وهل هو خطئي، أنا، أنني لاأرفض؟...

ـ ذلك أنك لاتنتظرين حتى أن يُطلب منك!...

ومرّتا أمام المخازن، وأمام الدكاكين. وكانت حافلات الترام تلامسهما.

وسألت أوديل فجأة قائلة:

ـ وأنت؟

ـ ماذا، عني أنا؟

ـ ألم تستبد الرغبة بك بعد؟ ألم يحاول شاتلار؟

ـ لماذا؟ أكان مقرّراً أن يحاول؟

ـ لاأريد قول هذا. إنك لاتفهمين...

بلى! بلى! فهمت ماري أنه نصب لها فخاً وأن أختها لعلها لم تكن بريئة بقدرما كانت تريد إظهار ذلك.

وصلتا إلى المحطة. وتوقفتا. وطلبت ماري بفارغ صبر:

ـ أمعك مال؟

وبحثت الثانية في محفظتها، ولم تجد سوى ورقة مدعوكة بمئة فرنك وبضع قطع النقود.

ـ أهذا كل شيء؟... أليس لديك مال في صندوق التوفير؟

ـ كلا...

ـ ألم يكن شاتلار يدفع لك المال؟

ـ ليس منذ أن عشنا معاً...

رفعت ماري كتفيها وذهبت إلى الكوّة واشترت بطاقتين إلى بايو. كان عليهما أن تمكثا ثلاثة أرباع الساعة على المقعد الرطب في قاعة الانتظار، وجعلت ماري تتمخط أكثر فأكثر، بينما احمرّ أنفها. كان هناك أناس كثيرون حولهما، لدرجة أنهما لم تتمكنا من قول ماأرادتا قوله. وتدبّرتا أمرهما بحيث لم تتلفظا إلا ببعض الجمل المبهمة وكانت امرأة سمينة ذات شنب تصغي إليهما بصرامة، وقد تجعّد جبينها من الجهد الذي بذلته لكي تفهم.

ـ الا تعتقدين أنت، أنه سيأتي؟

كلا، لم تكن ماري تعتقد ذلك. ولم تظهر أي تأثر للحادثة التي جرت لأختها.

ـ أتساءل عما يكون قد فعل لمارسيل...

ـ ولماذا تريدين أن يعمل له شيئاً؟

تمت رؤية قطار كان منذ نصف ساعة في المكان ذاته، من الجهة الأخرى للباب الزجاجي.

ـ ليس عليك سوى أن تمكثي في بور بضعة أيام، الوقت الكافي لنشر اعلان...

ـ اعلان لماذا؟

ـ من أجل وظيفة

كانت ماري دوماً قاسية القلب، أنفها على حدة. ولم تكن تحب أن يكون أحمر وتضع عليه المسحوق الأبيض كلما تمخطت.

ـ هل أستطيع النوم معك؟

ـ لا أعرف بعد...

وركلتها مرتين أو ثلاث بقدمها للفت نظرها إلى المرأة ذات الشارب، لكنها كانت آخر شيء تفكر أوديل بالنظر إليه.

ـ ما الأمر؟

ـ لاشيء... لا تهتمي، يافتاتي...

وكانت ماري تقول "يافتاتي" بلهجة حماية حقيقية.



في بايو، لم تلحقا بالحافلة واضطرتا لانتظار حافلة المساء، وكانتا لا تعرفان أين تذهبان. إلا أنهما على الأقل استطاعتا أكل الحلوى. وقد أكلتاها وهما تمران أمام واجهات المخازن، وتوقفت ماري، وقد أتتها فكرة، أمام أحد المخازن. وسألت أختها قائلة:

ـ ألا تزالين تعرفين الخياطة بعض الشيء؟ لأنك حينها، وبما أنك لن يكون لديك ماتعملينه لبعض الوقت، فسأشتري كل مايلزم لأخيط لنفسي ملابس تحتية...

وبعد لحظة، في المخزن، همست لها قائلة:

ـ أعيريني المئة فرنك التي معك... فليس معي المال الكافي...

وعاود هطول المطر. وكانت تفوح من الدكان رائحة القماش والقطن. وبحثت ماري مدة ساعة قبل أن تقرّر وخرجت ومعها رزمة لونها زهر وهي طرية.

ـ لن يكون عليك سوى البقاء في البيت... وهكذا، لن يستطيع أحد أن يقول لك شيئاً...

لأن المنزل، في زقاق الشاطئء الكلسي، كان لايزال ملكهما. وكان على العم بنسمن أن يعتني به، وكذلك بزورق صيد الأب الذي بقي مربوطاً في الحوض وجميع شباكه عليه، كما لو كان مستعداً لطلعة في البحر.

ـ عودي على كل إلى البيت... أما أنا، فيجب أن أمر على المقهى... وسآتي لملاقاتك وسأنام معك...

ـ ءأنت متأكدة؟

وافترقتا على رصيف الميناء حيث بدأ الرذاذ يهطل. وأشعلت المصابيح الغازية وارتفع المدّ. دخلت ماري إلى مقهى البحرية وخلعت قبعتها ولم تكن بحاجة إلا لنظرة دائروية لترى أن كل واحد كان في مكانه.

ـ صباح الخير!...

ـ أسرعي بخلع ملابسك، أنت، وسترتّبك ربة العمل...

ـ لماذا؟

ـ أهكذا قلت إنك ستعودين الساعة الرابعة؟

ـ كان الخطأ من الحافلة...

ـ أسرعي!...

ولم تسرع أبداً، على العكس! لم تمض مطلقاً وقتاً أطول من هذا في تبديل ملابسها وبقيت فترة طويلة قاعدة على جانب السرير دون أن تعمل شيئاً، وقد وضعت جورباً في يدها، وجعلت قدمها العارية معلقة فوق أرضية الغرفة.

لم يكن بالامكان التعبير عما كانت تفكر به. وعلى كل، لم تكن أفكاراً. كان هناك بداية دفء لذيذ في صدرها وشعور بأن أملاً كان يتوضّح؛ ثم السويداء وهي تنظر إلى السقيفة من

حولها، وأن تقول لنفسها إن ذلك لن يدوم طويلاً...

- إذن، ياماري؟

- سأنزل...

كانت مرحة، وقامت على خدمتهم بسرور، جميع الذين كانت تعرفهم، ولاسيما الشيوخ، الذين كانوا يجيئون إلى أبيها عندما كانت صغيرة. ومن ثم أكلت في المطبخ، على جزء صغير من الطاولة، ووضعت كثيراً من القشدة في حسائها بينما كانت ربة العمل تنظر إلى جهة أخرى.

وسألت المرأة وهي تهتم بطناجرها قائلة:

- ماذا ذهبت لتفعليه في شربور؟ ألم تري أختك؟

- نعم...

- أليست هي التي مع شاتلار هذا؟ لن يقرر تجهيز سفينته، هذا؟... إن القبطان محشور في المقهى طيلة النهار...

كان الجو حاراً. وكان بالامكان التحدث، على هذا النحو، على الأكل، والتفكير بأمر آخر بنفس الوقت، على نحو مبهم، ثم أيضاً بأشياء سارّة أكثر.

- اسمعيني، ياسيدة ليون...

- ماذا؟

- أرغب كثيراً، لبضعة أيام، أن أنام في منزلي...

- ماذا تقولين؟

- إن أختي في بور...

- التي مع شاتلار ؟

- لم يعودا معاً... ومن الممكن تماماً أن تذهب إلى باريس... وبانتظار ذلك...

وفي هذا المساء، في الساعة العاشرة، فتح باب المقهى، وظلت ماري فترة على عتبتها، وقد وضعت معطفها على رأسها، ثم انطلقت، واجتازت رصيف الميناء راكضة، وقطعت الجسر، وصعدت المنحدر ووصلت إلى بيتها لاهثة كما كانت تفعل عندما كانت صغيرة.

كان البيت مناراً. ولم تكن أوديل قد نامت. وكانت هناك قطعة حطب تكمل احتراقها في الموقد، لأنه لم يكن هناك مطلقاً مدفأة. وكان سرير والديهما الكبير في الجهة المقابلة للخزانة. وعلى الطاولة، كان مصباح كاز ينير أجزاء من قماش أبيض.

وسألت ماري قلقة وقد تخلصت من معطفها وقبقابها:

- ماذا تفعلين؟

- سراويلك...

- ومقاساتي، أيتها البلهاء؟

- لقد حسبت أقل بقليل مما أحتاجه لنفسي...

كانت سهرة غريبة، لا تشبه أية سهرة أخرى. أخذت أوديل المقاسات. وتكلمت ماري، وقد وضعت الدبابيس بين شفتيها. كادتا تختصمان من أجل موضوع ثنية.

- ماذا أكلت؟

- لاشيء... ليس في المنزل شيء...

- ألم يكن بإمكانك الذهاب إلى مجهز لحم الخنزير، أيتها البلهاء؟

وكأن ماري استولت على أختها الأكبر منها.

- ستنامين جهة الجدار... فأنت دوماً قدماك باردتان؟... طاب مساؤك...

فتنهدت الثانية قائلة:

- إنه أمر أحمق...

- ما هو الأمر الأحمق؟

- أن يكون قد صعد في ذلك الوقت...

وتحدثتا قليلاً أيضاً، بجمل قصيرة، كلما تبادر أمر إلى ذهنيهما، في العتمة، وقد بدأ دفء جسميهما ينتشر في السرير.

وفي الساعة السادسة، خرجت ماري دون ضجة، لتذهب إلى عملها، وتركت مالاً في مكان ظاهر على زاوية الطاولة، من أجل أن تشتري أوديل ما يلزم للأكل.



بعد مضي يومين، كانت أوديل قد استقرت وكأن ذلك للأبد، تحيط بها فوضاها وعاداتها التافهة، وبقايا الوجبات التي تظل دوماً على طرف الطاولة وفناجين القهوة نصف الفارغة، لأن القهوة كانت موضع شغفها.

عندما تعود ماري، الساعة العاشرة مساءً، تغلق الباب، ولا يكون سواهما هما الاثنتان في الدنيا.

كان الجو يعبق برائحة الحطب المحترق والسمك المقلي، كما في الزمن الماضي. وربطت ساعة جدارية ربحها أحد أصدقاء والدهما في مسابقة للبليار وبادلها بخزانة أدراج لسرطان البحر.

- ألم تصلك بعد رسائل؟

كانتا أرسلتا إعلاناً لإحدى صحف مدينة كان، بعد جدال طويل. وكانت أوديل ترغب أن تكتب "وصيفة" وأجابت أختها أنها لم تكن وصيفة بأكثر منها جنرالاً وأنها لم تكن تعرف كيف توقف خيطها على نحو صحيح! وأخيراً!... كتبتا وصيفة!... وانتظرتا دون انتظار، بما أنه لم يكن لذلك أهمية، وظلتا تخيطان من أجل ماري، التي كانت تراقب العمل بشراسة. وتنهدت أوديل قائلة:

ـ لو كان لدينا آلة خياطة...

آلة خياطة من أجل خياطة ستة قمصان وستة سراويل!

ـ ليس لدينا على الدوام أخبار عنه...

ـ كلا... لقد خابره قبطانه...

ـ وبعدها...

ـ وبعدها، لاشيء...

ـ ومارسيل؟

ـ وكذلك مارسيل...

في الزمن الماضي، كانتا الواحدة بعد الأخرى، عندما بلغتا العمر لذلك تقومان بالطبخ للبيت، وقد قرفصتا أمام الموقد، تنتعلان القبقاب، وتضعان مريلة سوداء، بينما كانتا في نفس الوقت تراقبان البزاقة.

ـ هيا، ياماري...

ـ ماذا؟

ـ كنت أفكر، قبل قليل... لماذا لانذهب كلانا إلي باريس؟...

ـ لأنني لا أريد أن أذهب إلى باريس، ياعجوزتي!

- ولماذا؟
- لأنني مرتاحة في بور...
وأوديل التي لم تكن بحاجة للنهوض في وقت مبكر، لم تكن تشعر بالنعاس. وتظلّ زمناً طويلاً تتقلب في السرير ولا تستطيع الامتناع عن الكلام.
- أتنامين؟
- نعم...
- ما الذي تجدينه مستحباً في بور، أنت؟
- أجد نفسي مرتاحة...
- في مقهى البحرية؟ لتقدمي المشروب لكل صيادي السمك هؤلاء؟
- كلا...
- إذن؟
- دعيني أنم...
وحصل صمت. وتنفس غير متساو.
- أتنامين؟
- قلت لك، نعم!...
- اعترفي لي بالحقيقة... ألديك عاشق؟
- من الممكن أن نعم.
- ماذا يفعل؟
- دعيني وشأني.
- هل أعرفه؟
وعندها، تنهض ماري وقدماها عاريتان، وتشعل المصباح، وتقف في مواجهة أختها التي يجعلها النور تغمز بعينيها.

- ألا تريدين تركي وشأني، كلا؟ علي أن أعود للنوم في غرفتي؟

- إنك شريرة... لي تماماً الحق بالمعرفة...

- إذن! اعلمي أنني لن أغادر مطلقاً بورا... وأنني سأتزوج... وأنني سأسكن في الجانب الآخر من الحوض، منزلاً على مثال المنزلين الأحمرين...

كان منزلين شهيرين، الوحيدين في نوعهما.

وكان أحدهما ملكاً لمجهز سفن، كان لديه ثلاث سفن ويقود هو نفسه إحداها؛ والمنزل الآخر كان منزل الطبيب الجديد؛ وكان شخصاً طويلاً له لحية، وهو أب لسبعة أو ثمانية أطفال.

وقد يعتقد المرء أنهما كلاهما اشترياهما على القائمة، كالدمى، لشدة ما كانا جميلين وزاهيين، بالضبط مثلما، عندما يكون المرء طفلاً، فإنه يتخيل المنزل المثالي، بسقف مرتفع جداً، وبلون أحمر قان، ومرآب إلى اليسار، وسطيحة وشرفات، ونوافذهما أكثر عرضاً مما هي مرتفعة، على نمط المنازل الريفية الأنيقة الانكليزية.

عندما كان عمر ماري أربع عشرة سنة، أرادت أن تكون خادمة أطفال لدى مجهز السفن، لشدة ما أعجبها المطبخ الأبيض ببلاطاته الصغيرة الخزفية حيث كان الغاز موجوداً وكذلك كلاّب صغير من النيكل لتعليق كل طنجرة.

وقالت لأختها وهي تقضم تفاحة خضراء:

- هل سررت، الآن؟

- ما الذي حكيته؟

ـ لم أحِك شيئاً مطلقاً. أريد منزلاً مثل هذين المنزلين. وسيكون هناك ثلاثة بدلاً من اثنين، هذا كل ما في الأمر... سيكون لي أطفال وخادمة فتية تعتني بهم...

ـ نامي! فقد وصل البرد إلى السرير...

ـ من الذي أراد ذلك؟ سيكون لزوجي سيارة صغيرة، وفي اليوم الذي يعود فيه من البحر، سنذهب إلى السينما، في بايو.

ـ من هو؟

ـ ماذا؟

ـ الزوج...

ـ سنرى ذلك فيما بعد، يافتاتي!... تراجعي... إنك تأخذين كامل المكان بمؤخرتك السمينة... أُسعدت مساء...

وأصرت أوديل أيضاً قائلة وهي نصف نائمة:

ـ ألا تريدين أن تقولي لي من هو؟

وثابرت ماري على مص قطعة تفاح، وهي نائمة.



ولم يكن مجهولاً أن هناك شكليات يجب إجراؤها، لكنهم رأوا إرجاء ذلك لما بعد، ودهشت ماري، ذلك الصباح لأنها رأت عربة خالها بنسمن تقف أمام المقهى.

وقال لها، بعد أن حيا ربّ العمل ووضع سوطه على طاولة:

ـ ارتدي ثيابك بسرعة، كي نذهب إلى بايو، سنمر عند قاضي الصلح. وقد كتبت إلى أوديل لكي تكون هنا:

ـ لم تتلق أوديل الرسالة.

ـ لماذا؟

ـ لأنها لم تعد مطلقاً في شربور... إنها هنا...

كانت أيام ترغب فيها ماري بشكل خاص أن تتهكم على خالها بنسمن، الذي كان له شاريان مضحكان أصهبان، مبللان على الدوام مثل شاربي الكلاب من نوع باربيه.

ـ يجب أن تقولي لها أن تتهيأ... سيكون بوسو هنا الساعة الواحدة...

كانت الريح تهب قوية وخاف بنسمن على غطاء عربته. وتكوّرت ماري وأختها في الخلف، تحت غطاء حصان رائحته جيدة ووجدا فيه بعض القشّات التي وخزتهما.

كانت ماري ترى بنسمن جانبياً. ومن حين لآخر، تلامس أختها بمرفقها، لأن الخال كانت لديه نقطة تتشكل على طرف أنفه، وترتجف لحظة، وتذهب أخيراً لتصل إلى الرطوبة المحيطة بالشاربين.

وقال لهما وكأنه وعدهما بقطع الشيكولاته:

ـ إن خالتكما تنتظرنا أيضاً...

ـ هل هي بصحة جيدة؟

ـ عدا دواليها... لكن سيأتي اختصاصي إلى بايو، الأسبوع القادم ولعله سيستطيع عمل شيءما؟...

واجتمعوا جميعاً، بالفعل، في رواق محكمة الصلح؛ كان هناك تيار هواء مخيف وشمرت ماري بأنفها يخزها مجدداً. ومن أجل المناسبة، عادوا إلى الحزن الكبير، عدا أوديل، التي تركت حجابها في شربور.

وبما أن السماء كانت داكنة وأوراق الشجر المتساقطة تحوّم في الساحة، ظنوا أنهم في عيد جميع القديسين.

وأعلن بنسمن بعد أن رمق زوجته بنظرة قائلاً:

بالطبع، إن أوديل راشدة. وأنا، سأكون الوصي على الأربعة الآخرين وسيكون بوسو بديل الوصي...

قال ذلك مثلما، عندما يذهب الناس في زيارة، يوصون عند قرع الباب: "أهم شيء، أن لاتضع أصابعك في أنفك..."

كل شيء كان مرتباً! ولم يكن عليه إلا أن يوقع! وقد جعل بنسمن يدفع الباب عندما قالت ماري:

- لست بحاجة لوصي...

- بلى، بلى! إنك تبلغين السابعة عشرة و...

- كلا، ياخالي. لقد بلغت الثامنة عشرة منذ ثلاثة أيام... وأريد أن أكون محرّرة، مثل بيرت...

- ومن هي بيرت؟

- إنها فتاة من بور... وقد شرحت لي...

وظن الناس أن الأمر سيتحول إلى مشاجرة. كان بنسمن أحمر الوجه من الغضب. وارتجفت زوجته من السخط.

- الفتاة الشريفة لاتحتاج لأن تكون محرّرة...

- وأنا لست بحاجة لأن أكون فتاة شريفة... أتأتين ياأوديل؟

وجرّتها إلى الداخل، حيث كانت مقاعد مقفرة، كما في الكنيسة، وجدران عارية، ضارية إلى الخضرة، وشيء يشبه مرتبة عالية ورجل يصنف الأوراق.

دخل بوسو وبنسمن بدورهما، وركضا خلف الشقيقتين.

- اسمعي ، ياماري... ياأوديل! أنت التي أذكى منها.

لم يكن المكان احتفالياً ولامؤثراً.

قالت ماري لرجل الأوراق:

- عفواً، أيها السيد، الا تستطيع أن تقول لي أين أجد محامياً لا يكلف كثيراً؟

لحسن الحظ أنهم أتوا قبل الموعد!

وكانوا يستطيعون مناقشة أمورهم دون إزعاج أحد. وكادت ماري تتلقى صفعة من بنسمن، الذي ردعته زوجته في الوقت المناسب.

ودخل أناس، قبل الجميع رجل أصلع جلس في زاوية منتظراً دوره، ثم امرأتان من سوق الخضار ظلتا واقفتين في نهاية القاعة.

وجدت ماري محامياً يلبس ثوباً أسود في ممر بارد ومتسخ أكثر مما هي عليه قاعة المحكمة، كان محامياً شاباً، له شاربان قصيران يشبهان شاربي شابلن.

- هذا هو الأمر... أود أن تأتي معي وأن تحررني... كم ستأخذ مني؟

والآن صار المحامي بكميه الواسعين يتناقش مع بنسمن وبوسو، ويحاول تهدئتهما. كان قد وعد ماري أن لا يحسب لها سوى خمسين فرنكاً.

كانوا يسمعون ضجيج الشارع، إلا أنهم كانوا بعيدين جداً عنه؛ وكانوا يشعرون أحياناً بالبرد وأحياناً أخرى بحر شديد؛ ولم يكونوا يعرفون أين يجلسون. كانت المقاعد صغيرة جداً بالنسبة للخالة بنسمن. وبوسو الذي أكل الحلزون، شعر بالعطش وتمنى لو بإمكانه الخروج لتناول كأس.

وأخيراً جاء سيد أسنانه صفراء، يبدو عليه التهذيب،

وجلس على المرتبة العالية وذهب المحامي ليحدثه وهو يشير إلى ماري.

والأطفال الآخرون، جوزيف وهوبير والبزاقة، لم يكونوا هناك، إلا أن النقاش كان يدور حولهم. ونودي على بنسمن، ثم على بوسو. كانوا يتكلمون بصوت منخفض. وأخذ زبائن جدد أماكنهم على المقاعد وحاولوا أن يفهموا ما الذي يجري.

ـ الآنسة له فلم...

تقدمت أوديل.

ـ أتدعين ماري له فلم؟

ـ كلا، أنا أوديل...

وذهبت ماري:

ـ ترغبين أن تكوني محرّرة؟... لقد بلغت الثامنة عشرة، كما يشهد بذلك قيد نفوسك...

وقالت وهي تتحدى خاليها وخالتها:

ـ وأود أن أكون وصية على البزاقة... ويمكن لأختي أن تكون وصية على الصبيين...

لم يكن كل ذلك موضوع حديث. وضاع كاتب المحكمة في كل ذلك. وأعيدت قراءة أوراق. وبحثوا عن أوراق أخرى. وفقد بنسمن وسائله، أمام القاضي ودفع زوجته إلى الكلام.

وتابعت ماري محاميها بعينيها مثل شخص راهن في المسابقات يتابع حصانه بعينيه لدى اتجاهه نحو ميدان السباق. حتى إنها همست له قائلة:

ـ لاتستسلم، على الأخص، لخالتي... وسأعطيك خمسة وعشرين فرنكاً زيادة...

وبعد نصف ساعة، انتهى الأمر. أي أنه يجب إتمام الإجراءات، إلا أن ماري صارت محرّرة نوعاً ما.

قالت لأختها وقد أمسكت بذراعها:

ـ تعالي !...

وخرجت، وفورة جداً، دون تحية الأقارب. وعندما صارت خارجاً، نظرت إلى الساعة في الكنيسة وقالت:

ـ لدينا الوقت للذهاب لأكل الحلويات قبل موعد الحافلة...

أكلتا الحلوى، وركبتا الحافلة سيئة الإنارة حيث جلستا في المقاعد الأخيرة. وسألت أوديل قائلة:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

ـ لأن!

ـ أسمعت ما قالوه؟ لن يمكن بيع شيء، ولا أخذ شيء من المنزل أو السفينة قبل أن...

ـ أكملي!

وبما أنهما كانتا تمرّان أمام كنيسة بور-أن-بسن، رسمت ماري إشارة الصليب والتفتت خلسة إلى المقبرة. وفي هذه اللحظة، كانتا تتلقيان من الخلف أنوار سيارة، إلا أن هذه لم تستطع التجاوز قبل رصيف الميناء ولم تلتفت ماري.

وقررت قائلة:

ـ سنذهب إلى المنزل.

اجتازتا الجسر الدوّار، ودخلتا إلى منزلهما، حيث كان الجو بارداً وحيث بحثت أوديل، قبل أن تخلع ثيابها، عن جريدة قديمة لأشعال النار.

ـ ألديك مايؤكل؟

ـ لدي سمك الرنكه...

ـ هنيئاً لكِ... أما أنا، فعلي أن أذهب إلى المقهى... يدعي رب العمل أنني أتنزه على الدوام... كمالوا!...

❖ ❖ ❖

إن كانت السيارة لم تتجاوز الحافلة، ذلك لأنها توقفت قرب المنازل الأوائل في المدينة.

وسأل شاتلار قائلاً:

ـ متى يعود أبوك إلى المنزل؟

ونظر مارسيل إلى ماء الحوض وقد علق عضده على صدره:

ـ مع المدّ... ليس قبل الساعة التاسعة أو العاشرة...

ـ إذن، إذهب لبيتك ولا تقل شيئاً... أتفهم؟... وإذا لم يعد حتى الساعة العاشرة، تنام وكأن شيئاً لم يحدث...

ونظر شاتلار إلى الصبي ينزل، وهو متضايق وأخرق، لايعرف ماذا يقول، ولاكيف يشكر.

ـ اذهب، على أن لايصادفك الناس...

ـ أ...

ـ نعم، مرة أخرى... طابت ليلتك!...

وضغط على المسرّع. وكانت فكرته أن يقوم بنصف استدارة. وذهب مع هذا حتى نهاية رصيف الميناء، وتجاوز مقهى البحرية بستائره ذات اللون السكّري. وعاد إلى الوراء، وأدار سيارته. وبدلاً من الذهاب مباشرة، نزل وسار بضعة خطوات على الرصيف.

كان دوماً، في النافذة الثانية، جزء من الستارة لاينزل رأسياً، ومن الفتحة، يمكن رؤية ما في الداخل.

مر شاتلار، وعاود المرور، ولم يميز سوى خيالات مائلة للون الأزرق في جو من الدخان. وانتهى به الأمر أن اقترب. وبما أنه، لم يكن يرى مريلة ماري البيضاء، فقد انحنى، وألصق جبينه بزجاج النافذة، بعد أن تأكد من عدم مجيء أحد.

لقد نظر يمنة ويسرة، حيث كان الرصيف مقفراً. وفاته أن ينظر خلفه، وماري التي اجتازت الجسر الدوار وقفت مباشرة عندما رأته.

ومع هذا لم تكن مستغربة.

كلا! كان الأمر مثل سرور موعود، قدّم لها أبكر بقليل مما توقعت. ابتسمت، ابتسامة دون استهزاء، ابتسامة لاتعبر عن مزيد من الانتصار. وعلى العكس من ذلك، اعتراها فجأة شيء من الرصانة، ولعله من الكآبة.

أما هو، فكان ينظر على الدوام! لم يكن يراها! لكن بما أن جزءاً من القاعدة كان خارج مدى نظره، فقد انتظر، مفترضاً أن ماري ستبرز من هذه الجهة. رأى الشيوخ جالسين إلى الطاولات، ورب العمل يدير زر المذياع، لأنها كانت ساعة الأخبار.

لم تتأهّب ماري لشيء. والدليل، أنها تساءلت عما إذا كانت لن تركض إلى منزلها لتقول لأختها:

- إنه هنا!...

ثم اتخذت قراراً مفاجئاً. وشدّت عليها المعطف الذي تدثّرته، واتخذت مشية شخص مستعجل، واجتازت الشارع، كما لو أنها لم ترَ شاتلار، ولا السيارة. وفتحت باب المقهى، ونادت:

ـ ديزيريه!... ديزيريه!...

كان غلاماً، ابن خادمة منزل، يرسلونه دوماً ليتبضع.

ـ أليس ديزيريه هنا؟...

ومكثت على عتبة المقهى، وقد أدارت ظهرها لشاتلار، تتكلم باتجاه الداخل، وإنما فقط من أجله.

ـ أركض بسرعة إلى منزلي، أيها الصغير... ستجد أختي أوديل... قل لها إني لن أعود إلا في الساعة العاشرة...

أعادت إغلاق الباب، وابتسمت لهم جميعاً، وأعلنت بمرح قائلة:

ـ حالياً، لقد أصبحت راشدة، ومحرّرة، كما يقولون...

ودّت كثيراً لو أنها استدارت، لكنها لم تجرؤ على ذلك. وعلى كل حال، عرف شاتلار الآن أن أوديل في منزلهما على الشاطئ الكلسي وأن ماري ستلحق بها الساعة العاشرة.

وذهبت ففتحت خزانة الحائط في آخر القاعة، وخلعت معطفها، وعقدت مريلتها.

ـ ماذا أقدم لك ، أيها الجدّ؟

ـ لقد شربت...

ـ لابأس بذلك... أنا التي سأدفع...

كان أفضل شيخ على وجه البسيطة بعينيه الزرقاوين كعيني الأطفال. كانت ماري قد ذهبت إلى المدرسة مع أصغر بناته، لأنه أنجب ثلاثة عشر طفلاً.

كان عليها بالدرجة الأولى أن لاتلتفت نحو النافذة. كان عليها أن لاتتظاهر بشيء.

وأخيراً فتح الباب. وعاد الغلام.

فسألته ماري بابتسامة خفيفة قائلة:

. ماذ قالت؟

. لم تقل شيئاً.

قسماً! لعل أوديل تساءلت لماذا أُبلغت بهذه المهمة! على أن لاتأتي، الآن، لتطلب إيضاحات من ماري!

. نخبك، أيها الجدّ!...

ودمدم هو قائلاً:

. إن لذلك تأثيراً غريباً عليك، يافتاتي، أن تكوني محرّرة...

ضحكت. وضحك. من أجل لاشيء. لأنهما كانا مسرورين كلاهما، دون سبب!

لمت ماري الكؤوس المتسخة، ومسحت الطاولات بضربة من خرقتها، وتجاوزت جزم الزبائن الذين كان لهم هوس بقطع المرور بأخذهم راحتهم.

وقالت بمرح وهي داخلة إلى المطبخ:

. لقد نسيت أيضاً حلوياتكم!

لأنها كانت وعدت ربة العمل بأن تأتيها بحلويات من بايو. ظريف! لايزال بعد لحم موره...

لم يسمعوها مطلقاً تتكلم إلى هذا الحد في يوم واحد. كانوا ينظرون إليها إلا أنهم لم يكونوا يحاولون الفهم.

وبعد ذلك بوقت طويل فقط، وبحجة إفراغ منفضة سكاير في الشارع، فتحت ماري الباب، ورأت السيارة دوما في مكانها؛ إلا أن شاتلار اختفى.

- ٧ -

لم يكن قد تنبه مطلقاً إلى أي تشابه بين الأختين وها إن صوت ماري هو الذي يصيح به:

- ادخل!

لم تكن ماري مع هذا، بل أوديل ، التي ظنت جارتها أتت لزيارتها وظلت تدير ظهرها إلى الباب، وقد جلست القرفصاء أمام النار، وأمسكت بيدها المشواة التي كانت تشوي عليها سمكة رنكة. كانت تضع مريلة سوداء وجدتها في خزانة حائط؛ وخفين حمراوين فوق جوارب من الصوف الأسود. وكان اللهب يعطي شعرها تموجات صهباً. وظل شاتلار هناك، قرب الباب، متأثراً وكأنه فاجأ شيئاً من حياة ماري الداخلية.

لم تكن هي، بالتأكيد. إلا أنها كانت أختها! وإذا نظر إليهما المرء من الخلف فقد يلتبس عليه الأمر بينهما! ألم تكن تلك جلسة اعتادت عليها ماري، ومريلة، وجوارب، وخفين لها؟

وتمتمت أوديل قائلة:

ـ ما الأمر؟

وعندها فقط، تحركت، أدارت رأسها، وانتصبت أخيراً، خائفة، ممسكة دوماً بالمشواة.

ـ هنري!...

كان ذلك اسمه، لكنه لم يكن يُستعمل مطلقاً، لدرجة أن هذين المقطعين أعطيا المشهد شيئاً من التبجيل.

ـ لاتقتلني، هيا!... ياهنري!... سوف أشرح لك...

ضحك ، ضحكة صغيرة لم تكن كثيرة المرح، واقترب منها وربت على كتفها. وقال:

ـ إنك بلهاء!...

فهمت أنه ليس غاضباً وتساءلت لماذا هو هنا.

ـ هل أتيت لتجلب لي حوائجي؟

ـ أعترف أني لم أفكر بذلك...

وأشار إلى المريلة من الطليسة:

ـ أهذا لأختك؟

ـ نعم...

لم تكن تعرف ماتفعل. وبما أنها رأته ينظر حوله وكأنه يبحث عن شيء، قالت:

ـ أتريد أن تجلس؟

وقرّبت منه كرسياً من القش. ثم، انتبهت إلى أنها كانت تمسك على الدوام بالمشواة في يدها:

ـ هل تعشيت؟

ـ كلا...

- هل يسرك أن تأكل سمكة رنكه معي؟

كان ذلك مرتجلاً تماماً. وكانت الخياطة تشغل نصف الطاولة. وضعت أوديل صحنين وملاعق وشوك على النصف الآخر، وفتحت باب الفسحة.

- أين أنت ذاهبة؟

- لجلب خمر التفاح من البرميل.

ملأت كوزاً من الصلصال، كما كانا يفعلان ذلك فيما مضى كل يوم، وعلى كل وجبة، في المنزل. وأضافت كسارة الخشب على النار لتحصل على لهب أكثر اشتعالاً!

- تحبها مع الكراث الأندلسي؟

وكان هو الذي، بحركة آلية نظّم فتيل المصباح. كان مرتاحاً، مع شيء من التأثر، لذة لطيفة ودافئة. وتعلق نظره على جميع الأشياء، بما فيها قميص نوم وضع على اللحاف الأحمر.

- هنا تنامين مع أختك؟

- بانتظار ذهابي إلى باريس... ستكون لي وظيفة وصيفة... أهي كاملة الاستواء؟... أعتقد أن بإمكانك أكل الثنتين؟...

لم تكن تعرف دوماً لماذا جاء وهذا ما كان يحيرها. ولم تكن بعيدة عن التفكير، لشدة ما كان يظهر من اللطف، أنه لم يكن يستطيع الاستغناء عنها وأنه أتى لاستعادتها. كانت تعرف رجلاً من هذا الطراز. رفيقاً لشاتلار، كان يعمل في التأمين. وكانت له خليلة تطمع فيه وتخونه بكل مناسبة. كان يعرف، إلا أنه كان متعوداً كثيراً على رفقتها لدرجة أنه لم يكن يستطيع التخلي عنها وكان يكتفي بضربها من حين لآخر.

ـ هل تركت سيارتك على الجهة الأخرى من الجسر؟

وترددت قليلاً في الجلوس، لكنهما انتهى بهما الأمر بالجلوس إلى المائدة قرب المصباح، وأمامهما كأسان من السيدر العنبري.

ـ في أية ساعة تعود أختك إلى المنزل؟

ـ في الساعة العاشرة... ليس دائماً في الساعة العاشرة بالضبط...

ـ هل لها عاشق؟

وعند قوله هذا، نظر بدقة إلى السرير وأساءت أوديل الظن. وقالت محتجة:

ـ على كل حال، فإنه لايأتي إلى هنا!

ـ إذن لها محب...

وأخيراً فهمت! كان هنا من أجل ماري! وعندما طلب منها أن تحضرها إلى شربور. حزرت أنه يستلطفها، إلا أنها ظنت أنها كانت رغبة مثل تلك التي تعتريه من حين لآخر ولا تدوم. كان مرفقاها على الطاولة، وشفتها سمينة، وقد صاليت أصابعها المكتنزة تحت ذقنها، وقالت وهي تنظر لهب المصباح الأصفر:

ـ لعلها لديها واحد، بالتأكيد... وإلا لما قالت لي ما قالته... إلا أنني أفتش عبثاً، ولا أرى من يمكن أن يكون...

ـ ماذ قالت لك؟

وأشعل لفافة تبغ وقلب كرسيه إلى الخلف. ظلا سنتين معاً وكانت تلك دون شك أول مرة تحدث بينهما ألفة حقيقية. كان الجو حاراً، كانت حرارة من نار الحطب يمكن لمسها

تقـريباً. وتفـوح في المنزل رائحـة طيـبـة لرنكه مشـوية وحطب يحترق.

وفي الخـارج، لم يكن يسـمـع سـوى هدير الأمـواج الرتيب. وتكلمت أوديل، مثلمـا كانت تتكلم في الزمن الذي كانت تعيش فيه في المنزل، مثلما كانت تتكلم مع أختهـا، محـرّرة بالتـدريج ما كان يمرّ ببالها.

ـ ليس الأمر أنها قالت شيئاً دقيقاً... كنا نتكلم عن باريس، على ما أعتقد... وسألتها لماذا لن تأتي معي...

كانت أكثر شقـرة من مـاري، وفـي نفس الوقت أكثـر بلوغاً وأكثر ليونة، وأكثر عدم دقة في الملامح وفي التعبير.

وقـد احـتـجت بشـيء من الضـيق حـتى أنهـا ترددت حـول استـعـمـال صيـغـة المـفـرد وقـد أوشكت على استـعـمـال صـيـغـة الجمع:

ـ لماذا تنظر إلي على هذا النحو؟

ـ تابعي...

ـ أتريد إعطائي لفافة تبغ؟

طلبت ذلك وكأنها طفلة، وبرغبة واضـحة لدرجة أنها كانت مؤثرة.

ـ كنت تقولين إن ماري...

ـ لست عـاشـقـاً. على الأقل؟ لأنني أظن أن لاحل لذلك... عندمـا تركب رأسـهـا...نحن، كنا ندعـوهـا المـاكـرة، لأننا لم نكن نعرف مطلقاً بماذا تفكر...

ـ كنت تتكلمين عن باريس معها...

ـ نعم، لأنه دون قول السوء بحق المقاهي، فإن المرأة بحال

أفضل دوماً في بيت ثري... وقالت لي ماري إنها لن تذهب مطلقاً إلى باريس.

- لماذا؟

- بالضبط... إنها تدعي أنها لن تغادر بور-أن-بسن ذلك أن شيئاً ما يبقيها هنا... وأراهن أنه صياد سمك... إلا أنني لا أرى أيهم، بين الشباب، هو مالك لسفينته... على الأقل إن لم يكن ذلك بعد وأن يرغب شراءها عن طريق الاعتماد البحري... ذلك قد يحصل...

- هل قالت إنه له سفينته الخاصة؟

- لقد قالت ذلك دون أن تقوله... فبالنسبة لماري، لاأحد يعرف على وجه الدقة... إنها تريد منزلاً قرب الحوض، في المكان الذي فيه منزلان جديدان، مثلهما تماماً، مع مرآب... الا يزعجك أن أتكلم؟

- مع مرآب... وبعد؟

- سيارة، بالطبع! للذهاب إلى السينما في بايو عندما يعود زوجها إلى البر... وقد يكون تماماً ابن بوشيه، بعد ذلك؟... إنه ابن البقّالة، إلا أن لهم حصصاً، في السفن...

- ألا يزال لديك شيء من خمر التفاح؟

وعادت لتجلب المزيد منه من الفناء وقالت:

- عاد المطر للهطول... لعل الموج ارتفع...

وبللت خيطاً لكي تضده، وثنته بين أصابعها، ومدّت الإبرة أمام نور المصباح.

وسألت قائلة بعد أن شاهدت رفيقها مفكّراً:

- بماذا تفكر؟ هل كان لك حقاً تطلعات إلى أختي؟

- أأنت متأكدة أنها لن تعود قبل الساعة العاشرة؟

- مطلقاً... تستطيع أن تبقى،..كم الساعة؟

- الساعة التاسعة وبضع دقائق...

ولم تره بعد بمثل الهدوء الذي كان عليه. وفي العادة، كان لايظل ربع ساعة جالساً على الكرسي نفسه ويلامس كل مايقع تحت يده. هنا، كأنه شعرنفسه في بيته، واسترخى، سعيداً مطمئناً، راضي النفس.

وسأل قائلاً:

- هل سكنتم على الدوام المنزل نفسه؟

- نعم... ولدنا جميعاً فيه...

على هذا السرير الكبير ذي الغطاء الأحمر، في الحقيقة! وكان من الممكن أن الغطاء لم يتغير أيضاً!

- بأي شيء تفكر؟ ألا زلت حانقاً علي؟

- لأي سبب؟

- تعرف تماماً ذلك... أما أنا، فإنني لم أكن أعرف حتى...

- كلا!

- ماذا؟

- لاتتكلمي عن هذا، أرجوك... إنه حمق كبير، أتفهمين؟...

- وهذا بالضبط ماأقوله...

- إذن، لاحاجة لقوله... إني لا ألومك... حتى إني لست متكدّراً لأن ذلك حصل...

- لكي تتخلّص مني؟

- من أجل هذا ولأسباب ثانية... لاتحاولي الفهم... الآن، وإذا أردت إدخال السرور علي، لاتقولي لأختك إنني أتيت...

نظرت إلى الصحون المتسخة والملاعق والسكاكين وتنهدت:

- في هذه الحال يجب أن أقوم بالجلي بسرعة...

- هذا هو المطلوب!... وإذا كنت بحاجة لقليل من المال...

- ذلك أني حالياً أعيش بمال أختي...

اختار ورقة ألف فرنك من محفظته ووضعها في علبة الحديد الأبيض حيث كانت كراكر الخيطان، والكشتبانات والأزرار.

وسألت أوديل وقد وقفت بدورها من أجل تسخين الماء:

- هل ستعود لرؤيتي؟

- لاأعرف...

- أحقاً أنك ستعيد إرسال أمتعتي لي؟... هناك أيضاً ثوبي الأخضر، وهو لدى الصبّاغ... الموجود في شارع الماريشال بيتان... انتظر!... سوف أعطيك البطاقة.

وجاءه صبر الانتظار. وأخذ البطاقة. كان يحتفظ دوماً بابتسامته غير المفهومة وأوديل، التي شعرت بالحاجة للإتيان بحركة لطيفة، انحنت نحوه وقبلته على خدّه في اللحظة التي فتح فيها الباب.

- إلى اللقاء!... إني تعيسة لأنني فعلت ذلك، أتعلم... آن الأوان لإغلاق الباب. وبكت لتأثرها، بكت على نفسها، وعلى الذي فعلته، وعلى كل الذي فقدته.

كانت تتخر، لأنها لم تجد منديلا تطاله، وبحثت عن الدست من أجل الجلي وتمتمت قائلة:

- إنه خطؤه أيضاً...

لماذا، لم تعرف شيئاً إلا أنها لم تتوصل للشعور أنها مذنبة لهذه الدرجة. وعلى كل فقد حصل الأمر بغباء... وقرب سرير المريض، لايأخذ المرء حرصه... كان مارسيل محموماً... وكان يحدثها عن ماري، ومن موضوع لآخر...

- ماذا بك؟

ارتعدت فرائصها. كانت ماري هناك، وقطرات الماء على شعرها، ودخلت هبة ريح كبيرة من الباب المفتوح.

- ليس بي شيء... إني حزينة...

- ماذا قال لك؟

نسيت وعدها وأجابت بسذاجة:

- لم يقل شيئاً... بلى! إنه غير ناقم علي وإنه سيرسل إليّ متاعي...

رأت ماري الصحنين المتسخين والهياكل العظمية لسمك الرنكه، والأقداح. رمت معطفها على السرير وأرسلت قبقابها يتدحرج حتى طرف الغرفة.

- أتعرفين أين هو ، حالياً؟

- كلا... لعله عاد إلى شربور...

- إنه على الرصيف العائم، وحده، في الظلام، في المطر والريح.

لم تفهم أوديل لماذا، ونظرت إلى أختها بدهشة وتابعت ماري قائلة:

- ما الذي قلته له؟

- لم أعد أعرف... إنك لاتريدين الذهاب إلى باريس... وإنك تفضلين الزواج من صياد سمك... من هو؟

كان شاتلار بالفعل على الرصيف العائم، قرب المضيق البحري، حيث في كل جذب، ينتفخ البحر عدة أمتار، ويهبط وكأنه عاجز ليعاود مباشرة. وكان من ناحية اليابسة تسمع الضجة، حيث يتوالى صفان أو ثلاثة صفوف من الأمواج العاتية التي تتكسر دون توقف عند أسفل الشواطئ الكلسية.

لم يكن يُرى شيء تقريباً، بسبب الظلمة. خمسة أضواء، لاأكثر، أحدها فوق الشارع الذي تقطنه الأختان، حيث كانت حجارة رصف الشارع تترك المجال للحقول، دون تحوّل. ثم ضوء قرب الجسر. ثم ضوءان غمازان، أحدهما فوق الآخر، للإشارة إلى المضيق البحري.

عادت سفينة، باندفاعات محركها السريعة وكان ينبض وكأنه قلب لاهث. وترتفع السفينة، هي أيضاً، في المجرى المائي الضيق، وساد الاعتقاد لحظة أنها سوف تصطدم بطرف الرصيف. وفي اللحظة التالية، كانت في المياه الساكنة للقسم الأمامي من المرفأ، وأطلقت صفارة، صوتاً قصيراً، وكأنها لا تريد إيقاظ المدينة، وسُمع رجل الجسر الدوّار وقد تعلق بالمُدوِّرة.

وكانت سفينة أخرى تتجذب إلى عُرض البحر. ومن حين لآخر كان يبزغ نورها الأحمر وبعد قليل سمع أيضاً لهاثها.

هذا هو الأمر!... لم يعد على شاتلار إلا الذهاب... فالبلاطات لم تعد صلبة تحت قدميه، لأن شباك صيد نشرت على الرصيف العائم.

كان النور لا يزال متوهجاً في منزل الأختين، وكان النور الوحيد في الشارع المنحدر. كان عليه الانتظار، من أجل

اجتياز الجسر، إلى أن تكون السفينة الثانية قد دخلت المرفأ. كان عامل الجسر، المتيبس في ملابسه المشمعة، ينظر إلى شاتلار، ولم يكن يعرفه وكان مندهشاً من رؤيته يبرز في الليل. طلب منه شاتلار ناراً. واقترب وجهاهما أحدهما من الآخر، إلا أنهما لم يعودا يتبادلان الحديث.

مرّت السفينة الثانية، بخيالاتها على الجسر. واستطاع شاتلار الوصول إلى سيارته، وجلس أمام المقود، وسحب دون اقتناع زرّ التشغيل. ولعله تمنّى أن تكون البطارية بلا سائل، إلا أنه كان هناك سائل. ودارت المروحة. وانطلق، وترك الدوّاسة، وسار بمحاذاة الحوض حتى نهايته ثم دخل بلطف في الحقول.



كانوا سبعة رجال على ظهر السفينة وجاءت أربع نساء دون ضجة، وكأنهن فأرات، من المدينة النائمة. كنّ هنا، بلا حراك ومرتجفات على جانب رصيف الميناء، وقد انحنين باتجاه أنوار السفينة، باتجاه الرجال الذين رفعوا رؤوسهم من حين لآخر وحرّكوا الحبال.

منذ ثمانية أيام وهم يعيشون في البحر، نبتت لحيتهم. كانوا قريبين جداً من اليابسة حتى لامسوها بطرف السفينة، واحتفظوا بحركات رصينة وثقيلة من عالم آخر؛ كانوا قريبين جداً من نسائهم، ورأوهن من الأسفل، وقد شددن على أنفسهن في شالهن، وأنهوا إرساء سفينتهم، ولفّوا الحبال الفولاذية، وأغلقوا الكوى. وما من واحد منهم فكر أن يجتاز قبل غيره

السلم الحديدي المندمج في حجارة الرصيف. وكانوا يتكلمون مع هذا، من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى. كان ذلك من أجل إعلان عدد صناديق السمك من جهة، ومن أجل إعلان الأسعار لليوم السابق وصيد سفن الصيد الجيبية التي عادت.

لم يكن فيو بحاجة لفتح فمه، لأنه لم يكن هناك أحد يخصه. وعندما أزف الوقت، ذهب إلى قرب الرحويّة وجلب حصة السمك التي أخذها لنفسه، بعض أسماك الغُبَّر التالفة وقد أمسك بها بنهاية ذراعه عندما اجتاز رصيف المبناء.

ومثلما كان يفعل دوماً، ضرب بقدمه على الرصيف لإسقاط الأوساخ من جزمته. ثم فتح بمفتاحه، وأدار الزر الكهربائي وكان أول اهتمام له أن يتأكد من وجود بعض النار.

ولعل آخرين فعلوا نفس الشيء، في منازل أخرى. فتح الخزانة ووجد ضلع خروف بارد وصحناً من البطاطا بالماء كان يكفي تسخينها على المدفأة.

ذهب وعاد دون أن يتكلم، بما أنه كان وحيداً. ولم يكن يتكلف تجنب الضجيج، لأن ابنته كانت صماء. وهو الجانب العملي الوحيد من إعاقتها لا حرّك الجمر. ووضع صحناً وشوكة وسكيناً وكأساً على قماش الطاولة المشمع. وقلى قبل كل شيء البطاطا، وعندما اسمرت الزبدة الساخنة، تسمّر في مكانه، وقد نظر إلى شيء كان على مسند كرسي، شيء طري وقاتم: إنه سترة.

كان باب غرفة النوم منفرجاً، كما هي الحال دوماً، من أجل الدفء. ودخل فيو، وقد قطب حاجبيه، ونظر بارتياب، ولم يشعل النور. لم يكن الظلام دامساً، بفضل الهالة الآتية من المطبخ.

اقترب من سرير كان فيه شخص، وظل واقفاً يؤكد النظر بوجه ابنه وفهم، من ارتعاده، أنه لم يكن نائماً، بل كان يتظاهر بذلك.

ولقول الحق، تحت الأغطية، كان مارسيل يرتجف من الإنفعال والخوف. كان يرتجف منذ أن سمع ضجة الجزمة على العتبة والآن لم يعد يتنفس.

لم يقل أبوه شيئاً، ولم يلمسه. استدار وعاد إلى المطبخ، حيث تابع تحضير وجبته. احترقت البطاطا تقريباً. ثم تصاعدت رائحة السمك.

وأخيراً سُمع سعال وكلمات ملفوظة:

- ألن تأتي لأكل شيءما معي، يامارسيل؟

كانت سفينة ثالثة، في مقدمة المرفأ، تطلب المرور من الجسر. وأعلنت ماري في الظلمة قائلة:

- إن لم تتركي مكاناً أكبر، سأعود إلى سريري القديم!...

- ٨ -

صار يحصل ذلك أكثر فأكثر، ويعرف إميل، النادل، عن بعد الرسم الذي لم يكتمل. كان الناس يتحدثون إلى شاتلار، مثلما كانوا دوماً يفعلون ذلك؛ كانوا رفاقاً، وزبائن ويدعونه إلى تناول كأس وهو كان يقبل بطيبة خاطر، أكثر من السابق الجلوس إلى طاولتهم.

ولعله كان قليلاً ما يصغي إلى مايقولونه له، لأنه كان لايلبث أن يعثر على قلم صغير في إحدى جيوبه ويبدأ الرسم، وكان نفسه على الدوام، يرسمه دوماً بطريقة مشابهة.

كان هناك أولا دائرة حادة باتجاه الأعلى، تتصل من الأسفل بنوع من الممر الواصل إلى مربع.

قبل شهرين مضيا، لو أن أحد النادلين، ترك لسوء حظه رسماً كهذا على رخام طاولة، ولو كان ذلك لمدة خمس دقائق بعد ذهاب الزبون، لحصل التوبيخ الأعظم، والقول التقليدي:

- أتظنون أنفسكم في مقهى صغير للاعبي المانيل بالورق... ولقول الحق. لم يفهم إميل الرسم. وكذلك السيدة بلان. لاسيما أنه في بعض الأماكن تضاف كميّات من علامات المدّ. ولم يكن بالإمكان التكهن بأنها تمثل منازل. والمجموع، كان مدينة بور-أن-بسن. بمقدمة مرفئها. وقنالها الذي يقطعه الجسر الدوّار وحوضها.

لم يكن شاتلار أكثر فخراً بنفسه كما من قبل. كان هناك شيء رخو في مزاجه ومنذ زمن طويل لم تُشاهد حفلات غضبه المفرقعة الجيدة.

ولم يكن بالامكان القول إنه يتعاطى الشراب. فعمه، الذي سبقه، نعم، كان سكيراً، رجل كان دون أن يبدو عليه ذلك. يشرب أحياناً مع شخص ثم أحياناً أخرى مع سواه بحيث كان يتناول عشرين فاتحاً للشهية في النهار، دون الأخذ بالحسبان مايتناوله بعد القهوة.

فيما مضى، كان شاتلار يتناول الماء المعدني. أما الآن، فقد تبدّل، إنه يشرب الجعة والنبيذ، ونبيذ البورتو، وانتهى به الأمر إلى شرب كميات كبيرة.

ولم يمنع ذلك من أنه لم يكن ثملاً عندما توجه بالكلام للسيدة بلان. كان الوقت ليلاً وبدؤوا بالإغلاق. كانت تصفّي صندوقها، وترتب المال كدسات تلفها بعدها بقطع الورق. كان ينظر إليها بتهكم وهي تقوم بلفّاتها الصغيرة، وكأنه ينظر إلى شيخ يلعب بنوى الكرز.

- هيا، أيتها السيدة بلان...

- إني مصغية، ياسيد شاتلار...

ـ عندما تزوجت...

ورفعت رأسها بحيوية، لأن الكلمة أثرت فيها. وأيقظت فيها تداعي الأفكار.

... أو إذا كان ذلك الأفضل، زماناً قبل أن تتزوجي، قبل أن تعرفي زوجك، ماالذي كنت ترغبين التزوج منه؟

إنها مع هذا قد أحسنت الإصغاء، وقد قطبت حاجبيها.

ـ ما الذي كنت سأتزوجه؟ لست أفهم...

كان هناك، في وضع اعتيادي، وقد وضع مرفقه فوق الصندوق العالي، بينما كان النوادل ينهمكون في القاعة الفارغة حيث تجمع دخان كل الفلايين ولفائف التبغ في ذلك اليوم.

ـ نعم... هناك من يرغبن التزوج من مهندس، من طبيب؟ وغيرهن من ساعي بريد... أنت، ماذا كان؟

بذلت جهداً من أجل النظر إلى الخلف، إلا أن ذلك كان عبثاً.

ـ في الحقيقة، لن أستطيع أن أقول لك... كنت أجد الضباط حسني الهندام لكن، أن يبلغ بي الأمر التزوج بأحدهم...

ـ حسناً! لم تكوني معتمدة... والآن، قولي لي كيف كنت تواجهين المستقبل...

ـ أؤكد لك، ياسيد شاتلار، أن...

ـ قسماً! كنت تواجهين المستقبل، جميع الناس يواجهون المستقبل! هل كنت تنوين العيش في منزل صغير في الريف، مع دجاج وخنازير؟

ـ كلا...

ـ وهل كنت تريدين قصراً مع ثلاثين خادماً أو محل جزارة خنازير وزوجاً يبيع لحم الخنزير؟

ضحكت، أما هو فقد ظلّ جاداً.

ـ تفهمين ماذا أريد قوله، الآن؟ هناك فتيات يرغبن بيتاً صغيراً لونه وردي ومعه مرآب ومطبخ ببلاط خزفي...

تنهدت السيدة بلان قائلة:

ـ بالنسبة لي، لم يكن لذلك أهمية. عندما تزوجت زوجي، كان مديراً للقمار وكنا ننتقل من مدينة لأخرى في كل موسم...

ـ غريب! لقد تزوجت مديراً للقمار؟

وجعله ذلك يفكر. ويرشق عاملة الصندوق بنظرات قصيرة من طرف عينه.

وتنهدت قائلة:

ـ لم يعد كذلك مطلقاً، بسبب حرقة معدته.

أما مدير القمار، كما تفهم، لايمكن أن تكون له...

ـ بالطبع!

ـ والآن، هو حارس ليلي، لدرجة أن...

كلا، لم يكن ثملاً، ومع هذا فإن نظرتها التي جالت حيث تكدّست الكراسي، كانت غامضة، وسألها فجأة قائلاً:

– الا يكدّرك، أنت، أن تمضي حياتك بتقديم الشراب للناس وأن تقولي لهم شكراً وأنت تصطحبينهم حتى الباب؟

ـ لكن، ياسيد شاتلار...

ـ أما أنا، فإنني أتساءل إن كان ذلك لايجعلني أتقزّز...

وعندما تركها، وقد ظهر عليه التقزّز بالفعل، وصعد إلى

شقته، وحيداً في غرفة خزانة المرآة.

في اليوم التالي، هاجم النادل الشبيه برئيس الجمهورية. وكان هذا خجولاً بما فيه الكفاية، فارتجف عندما رأى رب العمل يبرز ويسأله، بنظرة متشككة:

- أأنت متزوج، أنت؟

- نعم، سيدي...

- لماذا؟

وكان شاتلار يراقب أدنى منعكساته، وكأنه سينتزع منه سّراً دفيناً.

- لكن ياسيدي...

- هل زوجتك جميلة؟

- منذ زمان، في الحقيقة، لم تكن أقل جمالاً من غيرها، لكن، ولها خمسة أطفال...

وكرّر شاتلار برصانة:

- ولها خمسة أطفال، نعم...

ثم أدار كعبيه، تاركاً النادل هناك متعجباً، يتساءل إن كان أجاب كما يجب أن يجيب.

وأعطى شاتلار انطباع رجل ملول، يفعل ما يفعله دون قناعة، وكأنه ابتعد عن حياته الخاصة. حتى عندما كان يذهب، ويداه في جيبيه، للنظر إلى السفن قريباً من رصيف الميناء... فإذا كلمه أحد، ارتعد، مندهشاً، وقد خاف تقريباً.

رآه إميل مرتين، ذلك اليوم، ينحني خلف طاولة الشراب ويدفع كأساً صغيراً في حنجرته، لدرجة أنه بالكاد استغرب حادثة المساء.

لم تكن حادثة كبيرة، لكنها عرضية بالنسبة لمن يعرف مهنة المطاعم. أعاد أحد الزبائن المعاندين سمكة موسى لإميل، بالضبط، وهو أقدم النادلين، مدّعياً أنها ليست طازجة. وأميل، وفقاً للقاعدة، أخذ سمكة موسى بكرامة وتوجه إلى شاتلار ليريه إياها. وكان شاتلار، في هذه اللحظة، يأكل على الطاولة الأولى قرب طاولة الشراب.

فسأل قائلاً:

- ما الأمر؟

- إنه زبون يدّعي أن هذه السمكة ليست طازجة...

ولو كان مشغولاً بقراءة صحيفته، مثلما يحدث له أثناء العشاء، لأمكن فهم تشتت أفكاره. لكن كلا!

أجاب بصوت متجرّد تماماً:

- ماذا تريدني أن أفعل؟ إنه ليس خطئي...

- وليس خطأه كذلك...

- ماذ يقول؟

- يقول إنه لايستطيع أكلها...

- إذن، دعه لايأكلها... لاأستطيع إجباره على أكلها، أنا!...

ونظر إلى جهة أخرى. كان يبدو وأنه نحل، لكن لعل ذلك لم يكن صحيحاً. ماكان في الأمر، أنه أصبح أقل عناية بنفسه، لايحلق ذقنه إلا كل يومين أو ثلاثة يرتّب شعره على عجلة ويعقد كيفما اتفق أية ربطة عنق.

وكان مع أصدقائه، أي مع المجموعة الصغيرة التي كانت تجتمع كل يوم في المقهى حيث يتكلمون عن الأعمال قبل لعبة البيلوت، كان مشاكساً بوضوح، وأحياناً فظاً.

ـ كأنك واقع في متاعب...

ـ كلا!

ـ ألم توظف أموالاً في مؤسسة ستلا، على الأقل؟

ذلك مـاكـانوا يفكرون بـه، لأن مؤسسـة سـتـلا، التي تم إنشاؤها قبل ثلاث سنين في شربور، أعلن إفلاسها.

كان الأمر أكثر تعقيدا بكثير! وانتهى به الأمر لكثرة مافكر، أن أصبح رأسه فارغاً ورناناً مثل القدر المعدنية: رصيف عائم إلى اليسار، وآخر إلى اليمين، يجتمعان في المنتصف تقريباً، غير تاركين سوى ممرّ فقط للسفينة... ثم ضوءان غمازان صغيران، أحدهما في الأعلى والآخر في الأسفل لإظهار الممرّ... والشاطئ الكلسي من كل جانب... ورجل الجسر، بمعطفه المشمّع، يخرج من الظل في أية ساعة كانت من الليل ليدير مدوّرته...

أعطيت الأوامر: عندما يخابر دورشن يقولون له على نسق واحد إن ربّ العمل غير موجود.

ثم ، بعد بعض الوقت، تغيرت التعليمات. وكان عليهم أن يقولوا له:

ـ ابق حيث أنت ولا تهتم بشيء...

وأخيراً، وبما أن الغبي أصرّ على المخابرة كل يوم، جعلهم شاتلار يجيبوه:

ـ ط...!

كان إميل يلاحظه. وكان الجميع يتساءلون عما يدلّ عليه ذلك. كانوا يتكلمون عنه بصوت منخفض في الزوايا، وفي المكتب، وفي المطبخ.

وكان هو يتحرق. تلك كانت الكلمة، انقضت أيام، وأسابيع والأمر مستمر.

- قولي لي، ياسيدة بلان...

- أني أصغي إليك ياسيد شاتلار...

وينتهي الأمر بأن يحدثوه بصوت لطيف جداً، مثلما يتكلم المرء مع المرضى.

- فيما بيننا، ألم يزعجك كون زوجك مديراً للقمار؟

وقبل أن تجيب، نظرت إلى إميل، الذي لم يكن بعيداً وبدا وكأنه يقول لها:

- هاإن الأمر عاوده!

❖ ❖ ❖

كان قعر الهواء أكثر برودة، إلا أنها لم تكن تمطر في أغلب الأحيان وقد تم تجهيز الزوارق لصيد سمك الرنكه، الذي كان يتم صيده على بعد أقل من ميل من الرصيف العائم.

وذلك يوجد دائماً الإزدحام، لأن أربعين سفينة صغيرة تدخل وتخرج لدى كل مدّ. وعندما تكون السفن في الصيد، ترى في الأسفل، بعضها قرب بعض، بأشرعتها السمراء، وكأن نسيماً دفعها، وشكلت جزيرة صغيرة متحركة على البحر.

وبعد، تأتي النساء لرؤية الصيد، يحملن السلال، الرجال، الذين ربحوا المال، يذهبون لفترات أكثر إلى المقهى.

وفي كل يوم، كان لايفوت أوديل أن تقول:

- يجب مع هذا أن تتركيني أذهب...

وكانت ماري تجيب كل يوم قائلة:

- امكثي قليلاً أيضاً...

لم تكن أختها تطلب أمراً أفضل. كانت لها حياة طيبة صغيرة، وحدها في البيت الدافئ، حيث فقط، عند الظهر، قد تتجشّم عناء غسل وجهها. وكانت تخيط. والآن وقد انتهت من البياض، فقد جعلتها ماري تطرز حرفها الأول واستطاعت أوديل أن تطرز في نفس الوقت الذي قرأت فيه قصة بعشرين فلساً وضعت على الطاولة.

وكانت تتنهد قائلة:

- لن يدوم ذلك إلى الأبد. لابد لي أن أشتغل.

- لديك الوقت...

- أعرف أنني لاأنفق كثيراً، لكن ليس عدلا أن مالك...

وتلقت بواسطة الحافلة رزمة ضخمة تحتوي كل حوائجها. بما فيها الثوب الأخضر الذي لم ينسه شاتلار وأحضره لها من عند الصباغ. إلا أنه لم تكن هناك رسالة. وصحيح أيضاً، أنه عندما جاء، ترك ألف فرنك!

كانت الحياة رتيبة مثل سماء الشتاء. ولم يكن لدى الناس أشياء كثيرة يروونها، وإنما كانت على الدوام نفس قصص صيادي الأسماك الذين أكثروا من الشراب، وعن نساء ضُربن لأسباب وجيهة، وعن العجوز ميرو التي كانت تحصل المشاكل في بيتها على الدوام...

لم يعد مارسيل يذهب إلى بايو. كان يعمل متمرناً لدى جوسكن، الميكانيكي البحري، وكان يُرى أحياناً مرتدياً عفريتة زرقاء، ووضع وشاحاً صوفياً حول عنقه، وقد أمسك الأدوات على ظهر سفينة قيد الإصلاح.

ومع أنه كان يعمل، إلا أن أباه منعه من دخول المقهى وأطاعه في ذلك.

ظلت السفينة جان راسية في المكان نفسه، وتم دهانها، وشبكتها الجيبية في مكانها على ظهرها، وكان دورشن ينام فيها مثل هؤلاء الناس، الذين يسكنون الزوارق على ضفاف النهر.

لم يكن لديه مايفعله، فيما عدا المخابرة اليومية. وقد ركّب خيطاناً بصنارات، وخلال ساعات كاملة، كان يصيد على الرصيف العائم، أحياناً على ذلك الذى للأعلى، وأحياناً أخرى على ذلك الذى للأسفل، حسب النسيم. وكان الناس يضايقونه، فلايجيب ويكفهرّ وجهه وهو في مكانه.

هكذا مرّت الأيام، مثل الماء من الصنبور، وكانت بلا طعم مثل الماء، وهاربة مثله. ولم يكن هناك شيء. ماعدا المدّ، لكي يدلّ على مرور الزمن. تعوّد الناس جميعاً على رؤية ماري في مقهى البحرية، وهي من جهتها، كانت تعلم في أية ساعة يأتي كل منهم وما الذي يشربه، وتعرف الذين كان سكرهم هادئاً، والذين من الأفضل دفعهم إلى الخارج في الوقت المناسب والذين يظلون طيلة السهرة يحلمون وهم في مكانهم أمام كأس مليء.

ولاحظت أوديل التي، اعترافاً منها بالجميل، أحاطت أختها بالاهتمامات الصغيرة:

- أحياناً، أظن أنك تنتظرين أمراً ما.

إلا أن ماري لم تكن تجيب. صارت ماكرة أكثر من ذي قبل. برأسها الطويل الشاحب شأنها حينما أدركها البلوغ وأرهقها وتناولت المقوّيات.

- ألا تظنين أن وضعنا سيكون أفضل لكلينا في باريس، في وظيفة جيدة، لدى أناس أغنياء؟

كانت ترفع كتفيها. وطيلة النهار، كان بإمكانها، من فوق الستائر، أن ترى صاري السفينة جان وصدرها وعليه المثلثان الأصفران، ورقمها باللون الأبيض: س ١٢٠٧، ثم خلفها بالتمام المنزلين الورديين وسقفيهما من القرميد.

من أجل أن يخابر، كانْ دورشن يأتي إلى المقهى، وبما أنه لم تكن هناك غرفة للهاتف، بل كان الجهاز معلقاً على جدار المطبخ، كان يُسمع كل شيء.

- ... ماذا تقول؟... لكن يجب حتماً أن أكلمه!... ليعلمني على الأقل إن كان علي البقاء هنا... وعندها فليرسل إلي المال...

كان الناس يضحكون منه. وكانوا يضحكون من السفينة جان، دون قناعة.

وأصرت أوديل التي سمنت على تكرار قولها:

- أؤكد أن الأفضل لي أن أذهب...

وكانت أقل اقتناعاً أيضاً.

سمنت وصارت أكثر شحوباً، لنقص الهواء. وإذا استمرت أيضاً بضع سنوات على هذا النظام فستكون ضخمة، على شاكلة هؤلاء النسوة اللواتي بلغن سن الأربعين واللواتي نجدهن في المنازل المغلقة في المدن الصغيرة، واللواتي هن أيضاً، يطرّزن أو يحبكن طيلة النهار بالقرب من المدفأة.

- قولي لي على الأقل ما الذي تنتظرينه... في البداية، كنت تتكلمين عن الزواج، ومن بعدها...

وصاحت فيها ماري وغضبت فجأة قائلة:

ـ اسكتي!

ـ حسناً! لم أكن أعلم...

ـ ما الذي لم تكوني تعلمينه؟

ـ أن الأمر قد فشل، غريب! إنك ماكرة لدرجة كبيرة...

في العادة، كانت أوديل تنام نوماً عميقاً ولاتسمع مطلقاً عودة السفن، التي كانت مع هذا تحدث ضجة كافية بصفاراتها طالبة فتح الجسر.

وفي إحدى المرّات، مع هذا، أكلت سمك المورة مع القشدة ولم تهضم ذلك، واستيقظت في منتصف الليل. رغبت بأن تنهض لتشرب كأس ماء. وتردّدت، بسبب البرد.

فجأة بدا لها أنها تسمع تمتمة وأصاخت السمع، وقد قلقت. كانت تسمع ولا تسمع. إنه لأمر غريب. كان جسم ماري الدافئ بجانبها وحاولت أن تسمع تنفسها، وشاهدت أمراً غير طبيعي.

قسماً! ذلك أن ماري كانت تحبس نفسها، ولاتنام، كانت متوترة تماماً! ثم، في نهاية الأمر. كانت مجبرة على الشخر وتمتمت أوديل بخجل قائلة:

ـ أتبكين؟

ـ كلا...

قالت ذلك بصوت مرتبك، واستدارت أوديل، وكرّرت قولها:

ـ لكن بلى، إنك تبكين!... إنني أسمع أنك تتماسكين...

ـ اتركيني! ونامي!...

وعندها، بحثت أوديل بيدها عن وجه أختها، وشعرت به

مبللاً، وساخناً. فانتصبت، وأمسكت بعلبة الثقاب.

- أمنعك من الإشعال...

تعاركتا. كانت ماري تريد أن تعود أختها للنوم، لكن أوديل انزلقت من السرير. كانت قدماها العاريتان على الأرض والأرض مجّمدة. وجدت أعواد الثقاب، وأشعلت الشمعة التي حاولت ماري إطفاءها.

- لماذا تبكين؟

وأجابت الأخرى وأنفها وجفناها حمر، وخدّاها مبرنقان، وأساريرها متشنّجة .

- هل أسأت لك في أمر ما؟

- أنت بلهاء!

- إذاً ماذا بك؟

- نامي، هيا!... اتركيني، ذلك أفضل...

ولم تبدّل رأيها. شربت أوديل كأس الماء، ونامت مباشرة تقريباً ولم تشك أن هذا الأمر كان يحدث تقريباً في كل الليالي.

ولم يمنعها ذلك من إرسال إعلان جديد، لصحيفة في باريس: فتاتان تعرفان الخياطة تبحثان عن وظيفة معاً أو كل منهما على حدة!...

وبعد مضي يومين، بدأت تأمل بتلقي الأجوبة، وحصل الحدث، الذي لم تفهم منه شيئاً. لعل الوقت كان أقل من الساعة الخامسة بقليل. وقد تم إشعال المصباح منذ ساعة.

فتح صبي المقهى الباب دون أن يقرعه وصاح قائلاً:

- يطلبونك...

- أين؟... ماذا أيضاً؟...

❖ ❖ ❖

هذا ماجرى. وصلت سيارة وتوقفت على رصيف الميناء دون أن ينتبه لها أحد، لأنه بوجود سمك الرنكه، فقد كان تجار السمك بالجملة يأتون في أية ساعة كانت من النهار وبعضهم كانت سيارتهم جميلة.

نزل شاتلار، ودون استعجال، لكن دون أن يبطىء السير، اتجه نحو باب المقهى،ودفعه، وأغلقه خلفه، وذهب للجلوس في ركن، وعيناه تحيط بهما الزرقة، وكأنه لم ينم جيداً أو لم يهضم طعامه.

كان هناك أيضاً ستة صيادي سمك، إلا أن دورشن كان على ظهر سفينته. ولعل ماري كانت مؤقتاً في المطبخ لأنها، عندما دخلت ومعها صينية عليها كؤوس كادت أن تعلق بين ساقي شاتلار دون أن تراه.

وقالت:

- آه!

ونظر إليهما ربّ العمل الواحد بعد الأخرى. والبحارة أيضاً، كانوا يراقبون شاتلار وهم يتحدثون.

وقال بصوت مرتفع:

- تعالي إلى هنا، ياماري!

وجاءت، طيعة، دون أي لون وردي على خديها، ودون أي بريق في عينيها، جاءت، خجولة وكأنها تلميذة دخل فجأة عليها مفتش التعليم الابتدائي.

- إخلعي مريلتك... علينا أن نتحادث...

نظرت إلى رب العمل. ثم، بما أن رجلين دخلا، وكانت تفوح منهما رائحة السمك، تمتمت قائلة:

ـ لا أستطيع المغادرة في هذه اللحظة...

ـ إليس هناك أحد يقوم مقامك؟

ـ هناك أختي بالطبع...

ـ إذن، اطلبي من أختك أن تأتي...

والآخرون، الذين كانوا يسمعون، لم يكن بامكانهم فهم ما يجري. كانت الكلمات بسيطة جداً، لماذا كان اللذان يتلفظان بها شاحبين كالورق، وعيونهما غائرة وكأنهما قضيا ليلة في المجون.

وطلبت ماري من رب العمل، وكأنها فتاة صغيرة:

ـ هل أستطيع إرسال ديزيره لإحضار أختي؟ ستحلّ محلي لبرهة من الزمن...

كان الجو ثقيلاً، والمدفأة محمرة في وسطها. كان رب العمل محمرَّ الوجه أيضاً ، كعادته.

فتمتم قائلاً:

ـ إن كان هذا ضرورياً...

وأشار إلى ماري أن تذهب لملاقاته في المطبخ. لكن لم يبدُ عليها أنها فهمت. وطلب الداخلان الجديدان قهوة مع مشروب الكالفادوس وقدمت لهما الطلبين، دون أن تشك أنهما سيكونان آخر كأسين تقدمهما للزبائن في حياتها.

وهكذا فإن لحظة احتفالية مرّت دون احتفال، في جو من الحياة الاعتيادية الصامتة. انتظر شاتلار بفارغ صبر. ولم يلاحظ أحد أنه كان يضع قبعة بواقية أمامية وعليها شريط

مطرّز مثل البحارة ومجهزي السفن. لقد تبدّل فيه شيء، لكن لم يكن يعرف ما هو على وجه التدقيق.

كان يجب أن تكون أوديل هنا لتنعش المشهد بعض الشيء. ووصلت، لاهثة، وكأنها آتية بسبب كارثة، وقد وضعت يدها على ثديها. وصاحت، قلقة:

ـ ماالأمر، ياماري؟

كانت ماري هادئة وسط المقهى.

ـ لاشيء... إني بحاجة لأن تنوبي عني...

وخلعت مريلتها، بينما اكتشفت أوديل شاتلار، واحمرّت، ولم تعد تدري ما تفعل، وما تقول، ونظرت حولها بعين دجاجة مذعورة.

أما شاتلار، فقد نهض، وقال ببساطة:

ـ تعالي!

ثم التفت نحو الآخرين، نحو المقهى بكامله، وقال:

ـ إلى اللقاء بعد قليل...

وفي الخارج، كانت العتمة، والبرد. وريح البحر، والأنوار في أماكنها، وأشكال قاتمة تجتاز أحياناً الشارع، وربّات البيوت الذاهبات لجلب الحليب.

سار شاتلار باتجاه الجسر الدوّار، ويداه في جيبيه، وماري، بحركة طبيعية، علقت يدها اليمنى بذراعه.

كانا قد اجتازا الجسر وهناك فقط فتحت فمها لتقول:

ـ اعتقدت أنك لن تأتي مطلقاً...

وعندها توقف، تحت قنديل غاز، الوحيد الموجود في شعاع من مئة متر. وقال مباشرة:

ـ إنك تكذبين...

ثم نظر إليها مطوّلاً، نظرة كانت شريرة تقريباً لحدّتها. ونظرت إليه هي أيضاً وكأنها عادت إليها الحياة، وأن ابتسامتها الغريبة، المتهكمة بعض الشيء على الدوام، عادت لتزدهر على شفتيها الرقيقتين.

وبحركة مباغتة، جذبها إليه، وشدّها قدر ماتمكن، وكأنه أراد كتم أنفاسها، ونظرته، في هذه الأثناء، من فوق رأس ماري، اكتشفت الجسر الدوار، والمقهى، الحوض، والمنزلين المنارين إلى اليسار.

وهي التي تملصت بنهاية الأمر، بلطف. وأشارت إلى قنديل الغاز وتمتمت قائلة:

ـ لقد انتخبت المكان!...

وجعلا يسيران، أحدهما يداه في جيبيه، والأخرى متعلقة بذراعه. وتقدّما حتى نهاية الرصيف العائم وداسا بأقدامهما الشباك المنشورة. ولفتهما الظلمة وضجيج البحر. وسارا على الأقل مئة خطوة عندما دمدم شاتلار قائلاً:

ـ لست أعرف إن كنت أرتكب حماقة، ولكن...

ـ لكن ماذا؟!

ابتسمت في الظلمة. وشعر هو بذلك. كان يتصوّر وجهها الحليبي. وفجأة أمسك بها، ولكن هذه المرة لكي يلصق فمه بفمها.

ودام ذلك، ودام، واستطاعت سفينة من دخول المرفأ وأرسلت لهما صوت صافرة متهكم.

وعندما افترقا، كانت لهما كليهما، نفس الحركة باليد نحو

الوجه، كما لو أن شيئاً دغدغهما.

ثم ارتفع صوت ماري أيضاً. وسألت قائلة:

ـ هل أنت خائف؟

وضحك هازئاً وقال:

ـ لعل ذلك، منك؟ إن أنت ظننت هذا ياصغيرتي، فقد أخطأت. لقد سئمت من كوني صاحب حانة وأن أقدم الشراب للناس، هذا هو الأمر! أما فيما يتعلق بالبقية...

وعندما وصلا إلى نهاية الرصيف العائم، عادا على أعقابهما، حتى أنه تقصّد، وهو يسير، قول جملة غير لطيفة، إلا أن ماري كانت تبتسم على الدوام.

ـ كانوا جميعاً يزعجونني... لم أبلغ بعد السن الذي يدعوني للذهاب للشرب على كل طاولة وأن أقوم بلعبة مع الأغبياء... ماذا تقولين؟

ـ لاشيء...

ـ فكرت بأنه، بما أن لدي سفينة...

وفي كل لحظة ، كان يسكت ويلتفت إليها، آملاً أنها ستقول شيئاًما، لكنها كانت مفعمة سروراً، وسكتت، متلذذة بكل لحظة وحتى بنفاد صبر شاتلار وبغضبه المتصاعد.

ـ أعرف أنك ستتسلين بمرافقة زوجك إلى أن يركب السفينة وأن تلوّحي له بمنديلك من طرف رصيف الميناء...

ووضعت يدها في مكانها، على الذراع ذي العضلات.

ـ ماذا سنفعل بأختك؟

ـ لديها رغبة بالذهاب إلى باريس...

ـ ذلك أفضل!

وعادا تحت قنديل الغاز. كان الجسر مفتوحاً. وعليهما الانتظار كي يستطيعا الاجتياز.

وتنهد شاتلار قائلاً:

- وأخيراً، سنرى تماماً...

وبعد قليل، دخلا، على هذا الوضع دون أن يترك أحدهما الآخر، إلى مقهى البحرية. وجلسا إلى طاولة في الأخير، ونادى شاتلار على أوديل وقال لها بلهجة طبيعية تماماً:

- ستقدمين لنا مشروباً ساخناً...

كادت ماري تقهقه ضاحكة. وفي هذه المرة لم تكن أوديل، هي التي بذلت كل جهدها لخدمتهما دون أن يبدو عليها أنها لاحظت أمراً ما. كلا، ما كان مضحكاً، كانت هيئة شاتلار، الذي كان يرمق بنظرة متشككة جميع البحارة الجالسين إلى الطاولات وحتى ربّ العمل.

وفي الحقيقة، لعله كان يشعر برغبة مبهمة في العراك. كان على الأخص يخشى ابتسامة استهزاء، مهما كانت عابرة. وعندها بالتأكيد، سيقفز وكأنه فظ.

كاد ذلك أن يحصل. فقد قهقه شاب ضاحك ونهض شاتلار. إلا أنه فهم بوضوح أنه لم يكن يضحك منه وعاد فجلس.

أما ربّ العمل، فقد فهم أن الأمر جدّي ولحق بأوديل في المطبخ.

- انتظري... سأخدمهما بنفسي...

رغم كل ذلك ، رغب شاتلار بالمشاجرة. وفجأة قال بصوت مرتفع:

- ستقلع السفينة جان غداً باتجاه الشواطئ الانكليزية...

لم يتحرك أحد. واكتفت الوجوه بالالتفات إليه وصادفت الأنظار وجه ماري المشرق.

- سأحتاج إلى خمسة رجال وفتى بحار...

حصل صمت. ثم تمتمة حديث. وبعدها تقدم رجل طويل أصهب، وقد حمل قبعته ذات الواقية من الشمس بيده.

- إني متفرغ... فإن كانت الشروط...

وكان هناك شيخ يتنافس مع ابنه محاولاً إقناعه. التفت شاتلار إلى ماري وكأنه يسألها رأيها...

- بإمكانك قبوله... أنا أعرفه.

وأرسل شاتلار لاستدعاء دورشن، الذي وصل راكضاً.

- سنبحر غداً...

- ولكن...

- ساكون في السفينة تحت إمرتك، بانتظار اجتيازي للفحص...

- إني...

- تناول مشروباً وتعال...

لأنه كانت هناك مقاهٍ أخرى في مدينة بوز. وقاموا ثلاثتهم بارتيادها جميعاً، كانت ماري في الوسط، جلسوا وتناولوا مشروبات ساخنة وطرح شاتلار السؤال نفسه في كل مكان، لعله في داخله كان يأمل المشاجرة.

- لا أزال بحاجة إلى ثلاثة رجال...

ثم لم تعد هناك حاجة إلا لاثنين، ثم لواحد.

وبدأت المناقشات خلفهم.

- ستعمل مثل أختها...

ـ هذه؟ إنها خبيثة كثيراً فلا تقوم بذلك...

لم يكن شاتلار ثملاً. شرب فقط بعض المشروبات الساخنة. وفكر بكل شيء، حتى بأن يركن سيارته ويطلب أن يُنقل متاعه إلى السفينة.

كانت الساعة العاشرة، عندما أعلن بعد أن خرجوا من مقهى حيث أكلوا على قماش مشمّع بمربعات سمر قائلاً:

ـ والآن، ستذهبين للنوم...

كان خارجاً. ولايزال هناك قنديل غاز. قرّبت ماري شفتيها، بحركة صارت طبيعية.

ـ عمت مساء، ياهنري...

كانت المرة الأولى التي تقول فيها ذلك. وأدارت رأسها.

وعندما صارت على بعد أمتار، وهي تركض كالعادة وقد أمسكت بمعطفها المشدود عليها، فتح فمه ليناديها.

كلا! كان الأفضل أن يذهب هو أيضاً، لينام. كان حجز غرفة في مقهى البحرية. وكانت أوديل تقوم بالخدمة في القاعة. ابتسمت له ورفع كتفيه.

وقال:

ـ أيقظوني في الساعة الرابعة!

لم تكن هناك تقريباً فترة انتقال، لأن ماري تعرف وقت المدّ وتعرف في أية لحظة يجب أن تأتي، عندما ينتهي اللغط على ظهر السفينة وأن الرجال، قبل أن يحلّوا القلوس، لديهم وقت استراحة، الوقت اللازم، إجمالياً، لفتح الجسر.

كان الجو مظلماً. وكن ثلاثاً أو أربع على رصيف الميناء،

بقباقيبهن، وشالهن، وشعرهن مشعث واثنتان من بين الثلاث كن يحملن صبياً وواحدة كانت تسحب صبيين بيدها.

كانت القبلات تعبق برائحة مشروب الروم من السهرة السابقة وبالقهوة المسخنة صباحاً.

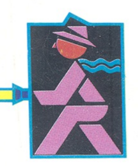
عندما بدأت السفينة تتقدم، تقدمت النسوة في الوقت ذاته، على الرصيف، وكان عليهن في النهاية أن يركضن.

جاءت أخيراً لحظة لم تعد السفينة فيها مرئية وتوقفن، واجتمعن معاً، وعدن ببطء، وقد شددن خمارهن، لأن برد الصباح تزايدت شدته. وقالت إحداهن:

- سأعود للنوم...

لكن ما من واحدة فهمت ماكان في عيني ماري، التي كانت دوماً خبيئة الطوية.

١٩٣٨



في بور. أن. بيسان، تفقد ماري، وهي صبية في السابعة عشرة، أباها. وتأتي أختها أوديل مع هنري شاتلار عشيقها لحضور الدفن. ويولع هذا الأخير بماري فيشتري لكي يراها مركب صيد ينشغل كل يوم به. ما الذي بات يهمه، أي شيء بعد مما عدا ذلك مادام قد علق الآن مابين حياة الميناء وحبه لماري؟...

«هنالك إذن طراز: سيمونون في الأسلوب، على غرار ما يقال: الطراز الامبراطوري. وامبراطورية: سيمونون، هي أكثر اتساعاً بما لا يقاس من امبراطورية نابوليون. ولا يملك لا الروس ولا الإسبان في التصدي لها إلا أن يقلدوا أستاذهم. إنه جو لا يمكن استنشاق هوائه، لولا أنه صار هو الأوكسجين لنا. «إنك بدأت تشبه صورتك الشخصية...». وإن جهنم ستيناتنا بدأت تشبه الصورة التي كان رسمها مسبقاً عن ذلك سيمونون قبل ثلاثين عاماً مضت»

(بول موران، من الأكاديمية الفرنسية)



دار المدى للثقافة والنشر